الإهداء

هذا الحوار مع القرآن المجيد أُهديه إلى كل أولئك الذين آمنوا أنَّ القرآن وحده هو المخرج من هذه الفتن التي تُحيط بنا، وهو وحده القول الفصل، ليس بالهزل، الكتاب الذي لا ريب فيه، مَنْ قال به صدق ومَنْ حكم به عدل ومَنْ جانبه زلّ وأخطأ وضلّ. إلى هؤلاء جميعًا أهدي هذا الكتاب، وإلى ذلك الصديق العزيز الذي يُصارع المرض الآن؛ الأستاذ الدكتور/بهاء الدين بكري، الذي كان طموحه وما يزال أن يؤسّس للعمارة الإسلاميّة أساسًا قرآنيًّا تقوم عليه ويقوم عليه العمران، وإلى الأخ العزيز الدكتور/أحمد سمير؛ الذي تشرّفت بمعرفته في ظروف مرضي في ربيع عام ٢٠١١، ووجدته قد أدرك قبل أن نلتقي أنّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، وأنّه وحده المنقذ من الضلال، والحافظ من الانحراف.

لقد كانت حواراتي مع الدكتور/أحمد سمير ومع الدكتور/محمد حازم، وعدد من الأطباء والمهندسين، تعزّز ثقتي وإيماني بأنّ عصر القرآن قادم، وأنّ اليوم الذي سيكتشف المسلمون -والعالم من بعدهم أو معهم- الإمكانات الهائلة التي يزخر هذا الكتاب الكريم بها قادمة لا محالة، وإلى أولئك الذين يصرّون على أن يكونوا جنودًا مجهولين باستمرار في معركة القرآن ضدّ خصومه، إلى هؤلاء جميعًا أقدّم هذا الجهد المتواضع خلال السير، سير «سراة الليل»؛ الذين يمسكون بالكتاب، ويتلونه حقّ تلاوته، ويحرصون على هداية أنفسهم وغيرهم بآياته. وإلى ابنتي رقية، التي كانت وما تزال من أوائل مَنْ يقرؤون لي ويوافيني بوجهة نظره دون نسيان أو تجاهل. ولأسرة مكتبي الصغيرة التي تُعاني ما تُعاني معي حتى ينضج العمل ويستوي على سوقه. إلى هؤلاء أقدّم هذه الهدية الزهراء، سائلًا العليّ القدير أن يُثيبنا جميعًا ويزيدنا بالقرآن تمسّكًا، إنّه سميع مجيب.

شكر وثناء

اعتدت أن أُشرك قرّائي بما يُلهمني الله -جلّ شأنه- من خواطر فيما يتعلق بالقرآن المجيد؛ لأنّني أرى أنّ هذه الخبرات والتجارب والتوفيقات الإلهيّة ليست ملكي وحدي، ولكنّني أشترك فيها مع كل مَنْ يتمنّى أو يحرص على أن يُحاور القرآن ويعمل على تثويره واستنطاقه ومعرفة مواقفه مما يمرّ الإنسان به في هذه الحياة من شؤون وشجون. وحينما دخلت في حوار مع القرآن المجيد حول قضيّة «وَحدة الأمّة»، وما إذا كان من الممكن استعادة هذه الوَحدة وإعادة بناء هذه الأمّة، وأطلعت بعض العاملين معي وبعض مَنْ يؤكدون باستمرار رغبتهم الشديدة في الاطلاع على ما أكتبه في هذا المجال؛ أُعجب الكثيرون بذلك، وألحّوا جميعًا على ضرورة نشره وتعميم الاستفادة به، فعهدت بذلك إلى الباحثة الكريمة الأخت/سارة محمد الصغير _طالبة الدراسات العليا في الفلسفة الإسلامية_ كي تقوم بقراءته وتبويبه وإعداده للنشر وتقديمه للطباعة، وقد فعلت، وفّقها الله وجزاها خيرًا. ثمّ قامت الأستاذة/ دينا أحمد الحصي بتدقيق البحث ومراجعته لغويًّا.

وهي محاولة أوليّة أرجو أن يكون لها ما بعدها، ولي كبير الأمل أن يستفيد بها محبّوا القرآن، الحريصون على تدبّره، المجتهدون في تلاوته حق التلاوة، سائلًا العليّ القدير أن يوفّقنا لأن نكون جميعًا على اتصال دائم بالقرآن الكريم لا ينقطع ولا يتوقف، وأن يجعل من القرآن الكريم هادينا ومرشدنا في الدنيا وشفيعنا وقائدنا إلى الجنّة في الآخرة، إنّه سميع مجيب.

المقدمة

الحوار سمة هذا العصر، والدعوة إليه أصبحت عامّة شاملة حتى بدأ بعض المنشغلين بالعلم يرى أنَّ الحوار لم يعد وسيلة فقط، بل هو حلّ وعلاج كذلك لكثير من القضايا. والمسلمون قد ابتلوا بهجر القرآن المجيد في وقت مبكر من تاريخهم وحياتهم، هذا الهجر قد أدّى إلى كثير من المشكلات، ونجمت عنه آلاف الأزمات، في مقدمتها تفكّك وحدة الأمَّة وما ترتَّب عليه. وقد كثرت النداءات بأنَّ الإسلام هو الحل، فمن الناس مَنْ يُقدّم من الإسلام جانبه التشريعيّ؛ فيُنادي بتطبيق الشريعة، ومنهم مَنْ يؤكد الجانب العقديّ، ومنهم مَنْ يتّجه نحو الجانب الأخلاقيّ، ومنهم مَنْ يرى أنَّ أهم جانب هو إعادة بناء الجانب السياسيّ والعناية بالشورى وما إلى ذلك.

وقد سلك الناس مسالك متعددة في الدعوة إلى الحوار والاجتهاد والتجديد وإعادة بناء الأمّة وإعادة وحدتها وما إلى ذلك، مع تأكيدهم على مرجعيَّة القرآن الكريم، وأنَّ له الكلمة العليا في الإصلاح والتجديد والعودة إلى بناء الأمَّة؛ وعندما نرجع إلى الواقع نجد الحوارات تأخذ أشكالًا مختلفة، معظمها تدور حول معارف أوصلها أصحابها أو اتصلت بشكل أو بآخر بالقرآن المجيد؛ ولكنَّ الحوار مع القرآن ذاته لا نكاد نجده إلا في محاولات يسيرة، يتَّسم معظمها بالبكاء أو التباكي على ما آلت إليه علاقة المسلمين بالقرآن المجيد؛ من أجل ذلك دعتني معايشتي للقرآن الكريم، وعملي في مراجعة ما عُرف في تراثنا بعلوم القرآن، وما أثاره عندي ما رُوي عن ابن مسعود من قوله: "مَنْ أراد علم الأولين والآخرين فليثوّر القرآن"[1]، كل ذلك دعاني إلى القيام بتجربة الحوار مع القرآن المجيد؛ لأنّني أؤمن أنَّ القرآن المجيد بمنزلة نبيّ مقيم تركه رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلَّم- فينا امتدادًا للنبوّة التي خُتمت، وللرسالة التي بُلّغت وأخذ تبليغها مداه.

انطلاقًا مما سبق فقد أقبلت على تجربة الحوار معه في كثير ممّا يهمّني من قضايا أمّتي ومشكلاتها؛ فوجدت متعة لا توصف، بل ينبغي أن تُجرَّب تجريبًا من الراغبِ في تذوّقها بمساءلة القرآن ومحاورته وتثويره واستقصاء أجوبته، فقد وجدته بالفعل يخرج عن أن

[1] ورد هذا الأثر في: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٣) ١٨٥/٢.

يكون مجرد كتاب موحٍ يُقرأ أو يُكتب، بل هو متحدّث يتحدَّث إلى القلب ويتحاور مع الفطرة الإنسانيَّة، بل ووجدت فيه طاقة هائلة في التعامل مع فطرتي، أجده أحيانًا -إذا ما جئت إليه مقبلًا بكل قوى وعيي لأثوّره- يُثير فطرتي، بل يستدرجها للجدل معه والتفاعل مع آياته، يستدرجها استدراجًا ليشتبك معها ويُثير كوامنها، ويُبرز بواطنها ويستخرج طاقاتها؛ فيفرض عليها الاشتباك مع آياته والتفاعل معها، فتبدأ الفطرة بطرح مختلف الأسئلة عليه وهو يجيب عن كل منها إجابة الخبير الحكيم: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (فاطر:١٤)، يُجيبك بتحدٍّ وثقة بالعلم المطلق الذي يستمد طاقاته وقدراته من علم أزليّ، فالقرآن المجيد يعلم أنّ الله -تعالى- قد فصَّله على علمه، علمه الشامل الذي أحاط بكل شيء؛ ولذلك فإنّك تجده يُجيبك بطريقة فريدة خلافًا لأيّ مسؤول تحاوره، إنّه يُعطيك إجاباته، ويشتبك مع فطرتك، ويلتحم مع قوى وعيك، وكلّه ثقة بأنّه قادر على أن يبيّن لك كل شيء، ويزيل كل غموض، وينفي كل إبهام، ويمحو أيَّة حيرة، بل إنّني أجده أحيانًا بعد أن يستدرج فطرتي يُوحي إليها بأسئلة جديدة، وكأنَّه راغب في أن يُطيل أمد الاشتباك بينه وبينها، ويدُعّها دعًّا ويدفعها دفعًا إلى الاستمرار في تفاعلها معه، ومفارقة حالة السكون والكسل والدّعة لتتجاوزها فطرتي إلى «حالة النظر».

بعدما يأخذ القرآن بيد الفطرة إلى «حالة النظر» ينتقل تفاعله مع «قوى الوعي الإنسانيّ» إلى تغيير المدركات التي كانت قائمة، وتنظيف الفطرة والعقل والقلب منها، وإحلال مدركات فاعلة -صاغها هو- من شأنها أن توجد في فطرتي وفطرة أيّ مُحَاوِر له مصادر طاقات؛ تولِّد دواعي وإرادات في الإنسان لا حصر لها، ولا يقتصر الأمر على ذلك؛ بل يحرص على بناء «ميزان» يقدّمه لفطرتي لتصبح حركتها صائبة، فإذا تلقّفت الفطرة ذلك الميزان بعد المراحل المتقدمة تكون قد بلغت مستوى الانفعال والتفاعل مع القرآن المجيد عبر تلك العمليَّة التي سمّاها ابن مسعود -آنذاك- بـ«التثوير»، فأجد نفسي -والفضل لله تبارك وتعالى الذي أودع في هذا الكتاب كل تلك الخواص- قد حصلت عبر ذلك الانفعال والتفاعل والجدل والأخذ والعطاء من القرآن على ما لا يمكن أن أحصل عليه بوساطة لغات اللُّغوِيّين ووسائل قواعد النحاة والصرفيّين وذوقيّات البلاغيّين ومشاعر العرفانيّين؛ لأنَّ كرم القرآن واسع ومتنوع، فهو يُعطي بلفظه ونظمه

وأساليبه وسياقه وظاهره ومُضْمَره ومذكوره ومحذوفه ومنطوقه ومفهومه، يعطي تلك الفطرة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب مفسّر أو مؤوّل، وتجد الفطرة نفسها -آنذاك- أمام كون مطلق فيه تبيان لكل شيء، مفصَّل بعلم الله الأزليّ الشامل الذي ما فرَّط الله فيه من شيء، كون يصنعه القرآن ناطقًا بالحق وحده، أمَّا الباطل فلا يأتيه من بين يديه ولا من خلفه.

هل كان هذا الذي أشعر به وألمسه وأنا أحاور القرآن هو الذي دفع الإمام عليًّا -رضي الله عنه- إلى استنطاق القرآن وسؤاله الرأي فيما كان يدور آنذاك؟ حيث نقل عبد الله بن شدّاد أنّه قدم على أمّ المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- قال: "فبينما نحن جلوس عندها مرجعها من العراق ليالي قوتل عليٌّ -رضي الله عنه- إذ قالت لي: يا عبد الله بن شداد، هل أنت صادقي عمّا أسألك عنه؟ قال عبد الله: ومالي لا أصدُقك؟! قلتُ: حدّثني عن هؤلاء القوم الذين قتلهم عليّ رضي الله عنه، قالت: فإنّ عليًّا -رضي الله عنه- لما كاتب معاوية وحَكَم الحكمان خرج عليه ثمانية آلاف من قرّاء الناس فنزلوا بأرض يُقال لها «حروراء» من جانب الكوفة، وإنّهم عتبوا عليه، فقالوا: انسلخت من قميص ألبسكه الله -تعالى- واسم سمَّاك الله -تعالى- به، ثم انطلقتَ فحكَّمت في دين الله، فلا حكم إلا لله تعالى، فلما أن بلغ عليّـــًا -رضي الله عنه- ما عتبوا عليه وفارقوه عليه فأمر مؤذّنًا فأذّن أن لا يدخل على أمير المؤمنين إلا رجل قد حمل القرآن، فلمّا أن امتلأت الدّار من قراء الناس دعا بمصحف إمام عظيم فوضعه بين يديه، فجعل يصكّه بيده ويقول: أيُّها المصحف، حدِّث الناس!! فناداه الناس، فقالوا: يا أمير المؤمنين، ما تسأل عنه إنّما هو مداد في ورق، ونحن نتكلم بما روينا منه، فماذا تريد؟ قال: أصحابكم هؤلاء الذين خرجوا بيني وبينهم كتاب الله!! يقول الله -تعالى- في كتابه في امرأة ورجل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاَحًا يُوَفِّقِ اللّهُ بَيْنَهُمَا﴾ (النساء:٣٥)، فأمّة محمد -صلّى الله عليه وآله وسلّم- أعظم دمًا وحرمة من امرأة ورجل، ونقموا عليّ أن كاتبتُ معاوية: «كتب علي بن أبي طالب»، وقد جاءنا سهيل بن عمرو ونحن مع رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلم- بالحديبيّة حين صالح قومُه قريشًا، فكتب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: «بسم الله الرحمن الرحيم»،

فقال سهيل: لا تكتب «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال: كيف نكتب؟ فقال: اكتب «باسمك اللّهم»، فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: فاكتب «محمد رسول الله»، فقال: لو أعلم أنّك رسول الله لم أخالفك، فكتب: «هذا ما صالح محمد بن عبد الله قريشًا»، يقول الله -تعالى- في كتابه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ (الأحزاب:٢١)، فبعث إليهم عليٌّ عبدَ الله بن عباس -رضي الله عنه- فخرجت معه، حتى إذا توسّطنا عسكرهم قام ابن الكوّاء يخطب الناس، فقال: يا حملة القرآن، إنَّ هذا عبد الله بن عباس -رضي الله عنه- فمن لم يكن يعرفه فأنا أعرف من كتاب الله ما يعرِّفه به، هذا ممَّن نزل فيه وفي قومه: ﴿قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ (الزخرف:٥٨)، فرُدُّوه إلى صاحبه ولا تواضِعوه كتاب الله، فقام خطباؤهم، فقالوا: والله لنواضعنَّه كتاب الله، فإن جاء بحق نعرفه لنتَّبعه، وإن جاء بباطل لنبكتنَّه بباطله، فواضعوا عبد الله الكتاب ثلاثة أيام، فرجع منهم أربعة آلاف، كلهم تائب، فيهم ابن الكوّاء، حتى أدخلهم على عليّ الكوفة، فبعث عليٌّ -رضي الله عنه- إلى بقيّتهم، فقال: قد كان من أمرنا وأمر الناس ما قد رأيتم، فقفوا حيث شئتم حتى تجتمع أمّة محمد -صلّى الله عليه وآله وسلّم- بيننا وبينكم أن لا تسفكوا دمًا حرامًا أو تقطعوا سبيلًا أو تظلموا ذمّة، فإنّكم إن فعلتم فقد نبذنا إليكم الحرب على سواء، إنَّ الله لا يحب الخائنين، فقالت له عائشة: يا ابن شداد، فقد قتلهم، فقال: والله ما بعث إليهم حتى قطعوا السبيل وسفكوا الدم واستحلّوا أهل الذمَّة، فقالت: الله، قال: الله الذي لا إله إلا هو"[٢].

إنّني أجد في الحوار مع القرآن علاقة خاصَّة بينه وبين فطرتي، علاقة متدرّجة متطوّرة لا تأخذ شكلًا واحدًا محدّدًا من البداية إلى النهاية، بل تتدرَّج في مستويات التنّوع والسموّ وما قد يقابلها، فهي تسمو بالقلب وتحرّكه؛ لتبلغ به مستوى الإخبات والخشوع، وتُباعد بينه وبين أن يهبط إلى مستوى العشو: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (الزخرف:٣٦)، أو مستوى الإعراض: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى*قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ

[٢] مسند أحمد. صححه الشيخ أحمد شاكر. والبيهقي في السنن الكبرى(١٨٠/٨) وصححه. وابن كثير في البداية والنهاية (٢٩١/٧) وإسناده صحيح. ونحوه في مجمع الزوائد (٢٣٨/٦) وقال: رجاله ثقات. وأورده الألباني في إرواء الغليل (١١١/٨) وقال: صحيح على شرط مسلم وورد عن عليّ -رضي الله عنه- في صحيح دلائل النبوة (٦٠١) وقال: الوادعي: هو حسن.

بَصِيرًا*كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾ (طه:١٢٤-١٢٦)، أو مستوى الهجر: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (الفرقان:٣٠)، فالقرآن يعمل بوسائل مختلفة وأساليب متنوّعة في الأخذ بقلب المحاور والابتعاد به عن الظلام والكسل، ويحمي الفطرة من الشلل، إنَّ العلاقة بين هذا الكتاب الكريم والفطرة الإنسانيَّة علاقة فيها حيويَّة وديناميكيَّة، فيها إقبال وإعراض، وذكر وإغفال، وقنوت وإخبات، وانغلاق وانفتاح: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ (الحديد:١٦)، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى*قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا*كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾ (طه:١٢٤-١٢٦).

إنَّ الفطرة بطبيعتها تتّجه إلى القرآن -بعد أنْ تألفه بشيء من المكابدة- اتّجاه الأرض العطشى للماء، مشتاقة إليه، متوجّهة له، مستأنسة به، مقتبسة منه، متفاعلة معه. إنَّها تجد في القرآن نفسها، وهو الكتاب الوحيد الذي يُشعرها بوجودها ويُبرزها في دائرة الوجود حتى تصبح وكأنَّها حاسَّة من الحواسّ الظاهرة، فالألفاظ -عادة- تتفاعل مع السّمع، وهو حاسة ظاهرة من حيث وجود عضو ظاهر لها؛ ولذلك فإنَّه كلمّا اختلفت الأساليب وأُحيطت الألفاظ بالمحسِّنات البيانيَّة والبديعيَّة كلما كانت أوقع في السمع وأجمل، ومن هنا يحرص أساطين الأدباء على تعدُّد أساليب التعبير عن المعنى الواحد، ويجد كثير منهم -حين يتعامل مع المعاني- أنَّها لا تقع في السمع بل تقع في القلب والنّفس، فإذا اتّفقت المعاني وتوحَّدت أقبلت النّفس عليها؛ ولذلك قالوا قديمًا: "الألفاظ من أمَّة الحسّ، والمعاني المتضمَّنة في الألفاظ من أمَّة العقل"، فالحسّ تابع للطبيعة، والنفس مقابلة للعقل، فالاختلاف في الألفاظ واجب والاتفاق في المعاني مطلوب، ولكنَّ القرآن المجيد عرف طريقه إلى قلب رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- فنزل عليه بألفاظه ومعانيه، فصار بجملته يتمتّع بكل تلك الطاقات، ويستثير في فطرة الإنسان وكينونته سائر طاقاته وكل مصادر الطاقة في قوى وعيه؛ عقله وقلبه ونفسه وفؤاده وهكذا.

من هنا أصبح لزامًا علينا -ونحن نريد أن نسلك سبيل التجديد- أن نقوم بالحوار مع القرآن، نحاوره في كل شأن، ونستشيره في كل أمر، ونثوّره لنستخرج معانيَه، ونبني على قواعده مشاريع إصلاحنا، وتجديد أمَّتنا، فليس في الوجود كتاب يمكن أن يُعيد تأسيس الوعي لأمّتنا وإعادة بناء الذات سوى هذا الكتاب الكريم؛ مع التأكيد على أنّ ثمة أمور لا بد أن يُراعيها المقبل على القرآن للحوار معه،من أهمّها:

أولًا: أن يُقبِل المحاور عليه بعد تطهير قلبه وعقله ونفسه ومشاعره من أيّة أحكام مسبقة، أو آراء تكوّنت خارج آيات القرآن؛ لأنَّ هذا القرآن لا يمسّ معانيَه ولا يرتقي لآفاقها إلا المطهّرون قلوبًا ونفوسًا.

ثانيًا: أن يأتي إليه وهو موقن بأنَّه سيجد ضالَّته فيه، فإذا لم يجدها فليس له أن يُسارع باتهام القرآن الكريم بأنَّه قد أغفل هذا أو تجاوز ذاك، بل يتهم نفسه بالاستعجال وعدم التأني أو عدم استيفاء شروط تلاوته «حق التلاوة»، أو عدم استعداد قوى وعيه استعدادًا تامًّا نقيًّا خالصًا للحوار مع القرآن.

ثالثًا: أن يحدّد بدقة ما يريد البحث عنه أو عن الإجابة عليه من القرآن المجيد، فإنَّه إن فعل ذلك -مع توافر شروط المعرفة والإلمام بأبعاد السقف المعرفيّ المؤثّر في صياغة أسئلته وطرق إدراكه لمشكلات واقعه- فسيوفّق -إن شاء الله- للوصول إلى النتائج المبتغاة.

لأجل ما سبق رأيت أن أشارك قرّائي هذه التجربة الذاتيَّة في الحوار مع القرآن؛ لعلَّهم يجدون فيها ما يحثّهم ويحضّهم على القيام بمثلها، والتحاور مع القرآن وإثارته أو تثويره، فإنَّه الهادي للتي هي أقوم، الذي يحمل الحق وأحسن الحلول وأقوى المعالجات.

ولقد جعلت هذه الحلقة من حواراتي مع القرآن -التي أرجو أن تستمر- في موضوع أساس؛ هو موضوع «إعادة بناء الأمَّة»، هل من سبيل إليه؟ وكيف؟ وما المنهج الذي يمكن اعتماده في إعادة بناء الأمَّة؟ وهل يمكن أن يعاد بناء هذه الأمَّة بخصائصها الذاتيَّة التي غرسها الله -تبارك وتعالى- فيها في النشأة الأولى؟ أم أنّها ستأخذ شكلًا آخر، وخصائص أخرى؟

فإلى الحوار مع القرآن الكريم أدعو إخواني وأخواتي وقرّائي جميعًا، وما ستجدونه في هذه الصفحات ليس إلا محاولة شخصيَّة وتجربة ذاتيَّة، قد يوفقكم الله لأحسن منها وأفضل، فمَنْ وجد خيرًا فليحمد الله ولا يحرمني من دعوة صالحة، ومَنْ وجد غير ذلك فليستغفر الله لي، وليحاول، فقد يكون التوفيق حليفه في بلوغ أفضل مما بلغته، والوصول لأحسن مما وصلت إليه، والله -سبحانه- وليّ التوفيق.

كتبه طه العلواني، في القاهرة

١٢ ربيع الأول ١٤٣١/٢٦ فبراير ٢٠١٠

بين يدي الحوار

هذه بعض أهم أسئلتنا وهمومنا اليوم، نتوجّه إليك -أيّها القرآن ذو الذكر- بها، ونحن مؤمنون بأنّك تبيان لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل:٨٩)، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ (مريم:٦٤)، ونؤمن أنَّ الله -تبارك وتعالى- لم يفرّط -فيما أنزل فيك- في شيء: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ (الأنعام:٣٨)، ولن يأتي الناس بشيء أو حلّ أو اقتراح إلا جئت بالحق وأحسن تفسيرًا: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (الفرقان:٣٣)، كما نؤمن بأنّك المحجّة البيضاء التي تركنا رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- عليها: "قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى المحجة الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لاَ يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِى إِلاَّ هَالِكٌ"[٣]، ونؤمن -كذلك- بأنّك تهدي دائمًا للتي هي أقوم: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ

---

[٣] "قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى المحجة الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لاَ يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِى إِلاَّ هَالِكٌ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلاَفًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِى وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الأَنِفِ حَيْثُمَا قِيدَ انْقَادَ"، الحديث معناه صحيح؛ ولذلك صححه بالسبر من صححه أمّا إسناده فلا يصح من خلال موسوعتين على حاسوب به نحو (٢٦٥٠٠٠) طريق، ونحو (١٣٦٠٠٠) ترجمة مع التكرار، وبدقة على مسئوليّة منتجي برنامجَي الألفية والموسوعة الذهبيّة. وفي هاتين الموسوعتين لهذا الحديث ٣٢ طريقًا. منها: عشر طرق تدور على خالد بن معدان عن عبد الرحمن بن عمرو السلمي، كما في سنن البيهقي الكبرى[٢٠٣٣٨](٢٠١٢٥)، والترمذي[٢/٠٢٦٧٦](٢/٠٢٢٥٣٩) و[٠٢٦٧٦]، والدارمي[٠٠٠٩٥]، ومستدرك الحاكم[٠٠٣٣٠]، ومسند أحمد[١٧١٤٤] والشاميين[٠٠٤٣٧]، و[٠١١٨٠]، ومعجم الطبراني الكبير[١٥٢٩٤][٠٦١٧/١٨] و[١٥٢٩٥][٠٦١٨/١٨]، وثلاثة طرق على خالد كما في معجم الطبراني الكبير[١٥٢٩٨][٠٦٢١/١٨]،و[١٥٣٠١][٠٦٢٤/١٨] و[١٥٣١٩][٠٦٤٢/١٨]، وخمسة طرق على عبد الرحمن كما في سنن ابن ماجه[٠٠٠٤٣]، ومستدرك الحاكم[٠٠٣٣٢]، ومسند أحمد[١٧١٤٢]، والشاميين[٠١٣٧٩]، ومعجم الطبراني الكبير[١٥٢٩٦][٠٦١٩/١٨]، و أربعة طرق على عبد الرحمن وحجر بن حجر كما في جامع ابن حبان[٠٠٠٠٥]، وسنن أبي داود[٠٤٦٠٧] ومستدرك الحاكم[٠٠٣٣٣]، ومسند أحمد[١٧١٤٥]. وخمسة طرق على يحيى بن أبي المطاع عن العرباض بن سارية كما في سنن ابن ماجه[٠٠٠٤٢]، ومستدرك الحاكم[٠٠٣٣٤] ومسند الشاميين[٠٠٧٨٦]، ومعجم الطبراني الأوسط[٠٠٠٦٦]، و[١٥٢٩٩][٠٦٢٢/١٨]. وطريق واحد على أبي إسحاق السبيعي كما في مستدرك الحاكم[٠٣٣٣٦] و طريقان على رجل مجهول العين كما في مسند الحارث[٠٠٠٥٥]، و[٠٠٠٥٦]، أمّا خالد وأبو إسحاق فمدلسان و لم يصرحا بالسماع، وأمّا عبد الرحمن وحجر فلم يوثقهما أحد. إنّما ذكرهما ابن حبان في ثقاته وهو مشهور بتوثيق المجاهيل. وأمّا يحيى بن أبي المطاع فلم أجد توثيقا له عن معاصر له. إنّما وثقه دحيم عبد الرحمن بن إبراهيم الدمشقي وذكره ابن حبان في ثقاته و لم يدركاه، وقد أنكر سماعه من العرباض أبو زرعة الرازي ودحيم. ففي {١،تهذيب الكمال للمزي}[٠٨٢٥١](ق) يحيى بن أبي المطاع، قال أَبُو زرعة الدمشقي حدثني عبد الرحمن بن إبراهيم قال حَدَّثَنَا مُحَمَّد بن شعيب قال أخبرني الوليد بن سليمان بن أبي السائب قال صحبت يحيى بن أبي المطاع إلى زيزى فلم يزل يقرأ بنا في صلاة العشاء وصلاة الصبح في الركعة الأولى بقل هُوَ الله أحد وفي الركعة الثانية بقل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس، قال أَبُو زرعة فقلت لعبد الرحمن بن إبراهيم تعجبا لقرب عهد يحيى بن أبي المطاع وما يحدث عنه عبد الله بن العلاء بن زبر أنّه سمع من العرباض بن سارية فقال أنا من أنكر الناس لهذا وقد سمعت مَا قال الوليد بن سليمان قال عبدالرحمن قال مُحَمَّد بن شعيب قال الوليد بن سليمان فحدثت أيوب بن أبي عائشة بهذا فأخبرني أنّه صحب عبد الله بن أبي زكريا إلى بيت المقدس فكان يقرأ في العشاء بقل هُوَ الله أحد وفي الركعة الثانية بالمعوذتين. فكانت هذه أيضا إذ يحكيها الوليد بن سليمان عن يحيى بن أبي المطاع لأيوب بن أبي عائشة فيحدثه بمثلها عن بن أبي زكريا أكبر دليل على قرب عهد يحيى بن أبي المطاع وبُعدِ مَا يحدث به عبد الله بن العلاء بن زبر عنه من لقيه العرباض والعرباض قديم الموت. ومنها طريقان يدوران على إسماعيل بن عياش عن مهاجر بن حبيب كما في

يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء:٩)، وأنَّك كاف لنا عمّا سواك: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (العنكبوت:٥١)، وقد أكد مترّلك -جلّ شأنه- ذلك، فأجِبْنَا يا قرآن عمّا عنه نسأل؟ واشف صدورنا ممّا تجد، لا حرمنا الله من هدايتك.

*** *** *** *** ***

مسند الشاميين[٠٠٦٩٧] ، ومعجم الطبراني الكبير[١٥٣٠٠][٠٦٢٣/١٨] أمّا إسماعيل فمختلف في توثيقه، وأهل المصطلح على أن الراوي إذا اختلفوا فيه بين مجرح ومعدل فالجرح عندهم مقدّم؛ لأنّ المعدلين بنوا تعديلهم على أصل، هُوَ أنّهم لا يعلمون عن هذا الراوي شرًّا، فجعلوا عدم علمهم هذا أصلاً بنوا عليه تعديله، بينما بنى المجرحون جرحهم على أصل أنّهم يعلمون عن هذا الراوي شرًّا، فجعلوا علمهم هذا أصلاً بنوا عليه تجريحه والقول المبنيّ على علم مقدم على القول المبنيّ على عدمه. وأمّا مهاجر بن حبيب فلم أجد توثيقًا له عن معاصر له، إنّما وثقه أبُو حاتم الرازي والعجلي وذكره ابن حبان في ثقاته و لم يدركوه. هذا فضلاً عن عورات أخرى بالأسانيد.

السؤال الأول

أيّها القرآن الكريم، إنَّنا قد فعلنا الكثير من أجل أن نثبت إيماننا بك وحبَّنا لك والتزامنا بهديك، فقد أنشأنا كثيرًا من الإذاعات والفضائيَّات التي تردّد آياتك صباح مساء، وأنشأنا كليّات للقرآن الكريم، وأقسامًا دراسيّة لعلومك، وأنشأنا مدارس لتحفيظ آياتك، ورصدنا الجوائز السخيّة للمسابقات بين قرائك؛ لتشجيعهم على مواصلة الحفظ والقراءة والارتباط بك، فعلنا ذلك كلَّه، ومستعدون أن نفعل الكثير، فهل وفّيناك حقّك؟ وهل ترى أنَّنا في حالة تمسّك بك؟ وهل غادرنا بذلك حالة هجرك؟

يا قرآن؛ لقد مضى على وفاة رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلَّم- ما يقرب من أربعة عشر قرنًا؛ تغيَّرت خلالها علاقاتك بالأمَّة التي صنعها الله بك، وتكوّنت بآياتك، وهي الآن تظن أنَّها قريبة منك وهي قد تكون أبعد ما تكون عنك، فنحن نعلم أنّها لم تعد ترجع إليك في صياغة أفكارها ولا في تأسيس مبادئها ولا في نظم حياتها ولا في تسديد مسيرتها، فأنت بالنسبة لها كتاب تقرؤه في مجالس عزائها، وتتراجم بآياتك في مجادلاتها ومخاصماتها، لا تُحكّم شريعتك ولا تلتزم بآدابك ولا تهتدي بهديك، فما الذي حدث؟ وكيف يمكن رأب الصدع وردّها إليك ردًّا جميلًا؟

إجابة القرآن:

معنى الهجر:

«**الهجر**» و«**الهجران**» من المفاهيم القرآنيَّة الهامّة التي تعني مفارقة الإنسان غيره، وهذه المفارقة تكون بالبدن وباللسان وبالقلب والوجدان والمشاعر؛ ولذلك فإنَّه مفهوم يتعلق أحيانًا بما هُوَ حسيّ وأحيانًا بما هُوَ معنويّ، وقد استعمل القرآن المجيد هذا المفهوم في الأوجه كلّها؛ فمن الهجران الحسيّ والبدنيّ قوله تعالى: ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾ (النساء:٣٤)، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ (المزمل:١٠)، فالأمر يحتمل الثلاثة، والوصف بالجميل يُعطيه -صلّى الله عليه وآله وسلّم- حريّة الاختيار لنوع الهجر أو أنواعه دون التفريط بهذا الوصف، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ (مريم:٤٦)،

وقوله تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ (المدثر:٥)، فهي حثّ على القيام بجميع أنواع المفارقة وبالأوجه كلِّها، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (الفرقان:٣٠)، فهي شاملة للهجر باللسان وذلك بعدم القراءة، وبالقلب وذلك بعدم التفكُّر والتذكُّر والتدبُّر والتعقُّل والتلاوة والترتيل، وشاملة لهجر الألفاظ وهجر المعاني.

ولعلّ لنا أن نستخلص من كل مَا تقدم أنَّ الأمَّة -في وقتها الحاليّ- وإن أكثرت من قراءة القرآن وطباعته ومدارسة تفسيره وقراءته، وخصّصت المحطات القرآنيَّة والفضائيّات لترديد آياته، فإنَّها في حالة هجر للقرآن الكريم من حيث العمل به، وتدبُّر معانيه ودلالاته، ومعرفة المراد به، وبناء الحياة بمقتضاه وإن انشغلت ألسنتها وأسماعها به، فذلك لا يُخرجها من الاتصاف بحالة الهجر، ولن تخرج من ذلك حتى تصبح صلتها به ألفاظًا ومعاني وتأويلًا وتطبيقًا ومعايشة كاملة، فزوال وجه من أوجه الهجر لا يُخرجها من صفة الهجر. وهجر القرآن خطيئة كبيرة وخطأ عظيم مَا كان لمؤمن ولا مؤمنة أن يقع فيه. إذا تبيّن هذا فلا بد لنا من تتبّع مظاهر الهجر لنعرف كيف نتجاوزها، وكيف نتخلّص منها، وكيف ننقذ أنفسنا من الوقوع بين أولئك الذين اتخذوا هذا القرآن مهجورًا.

أسباب الهجر:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (الفرقان:٣٠)، ويقول: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (طه:١٢٤)، ويقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (محمد:٢٤)، ويقول: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ (طه:١٠٠)، ويقول: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ (ص:٢٩).

لقد شُغل أفراد الأمّة عنّي بالرّوايات والأخبار والقصص والمواعظ، وتوهّموا أنّها تكملة لي وتتمّة ضروريَّة لي، وأنَّهم بذلك يستعينون على فهمي، ويتمكنون من حسن العمل بي، وتوهّموا أنَّ تلك الروايات تشتمل على هدايتي، وتستضيء بأنواري!

لقد كان جيل التلقّي -الذي استقبلني وعرفني- يتعلّمون منّي ما يترل من آياتي على يد النبي -صلّى الله عليه وآله وسلَّم- فلا يتجاوزون العشر آيات من آياتي إلا بعد أن يتعلّموها ويعملوا بها، فتعلّموا منّي العلم والعمل معًا، ولم يقل أحد منهم بأنّني أحمل العلم -وحده- ولا أهدي إلى كيفيَّة العمل!

ثم جاء مَنْ توهّم أنّي لا أعلم العمل ولا أحمل منهجًا له، وأنّني أعطي العلم فقط، فصاروا يطلبون تعلّم العمل من غيري مما سمّوه مصادر، وسوّلت لهم أنفسهم بعد ذلك أنّ العلم الذي أحمله متضمَّن فيما يتداولونه من أخبار وروايات وأحاديث وقصص، فاكتفوا بها وتجاهلوني، وكان عليهم ألا يغفلوا عني لحظة من نهار أو ليل، وكان عليهم أن يتخذوني مصدرًا للعلم وميزانًا للعمل، ألم يقرؤوا قول الله -تعالى- فيّ: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (الزخرف:٣٦)، وأنا القرآن ذو الذكر، وأنا الذكر.

ثم برز بعد ذلك الجيل مَنْ اعتنى بالفقه وارتأى أنّ ما عُرف بـــ«ـــالفقه الأكبر» هو عبارة عن اهتمام بشرحي وتفسيري العلميّ والعمليّ التطبيقيّ، فبدؤوا يتّجهون نحوه، ويتجاوزون آياتي والأخبار والروايات التي كانوا يتداولونها، وطال عليهم الأمد، وزادت فيهم قسوة القلوب.

ثمّ تجاوزوا «الفقه الأكبر» إلى الأصغر الذي أعطوه معاني وتعريفات اختاروها، ورسومًا رسموها، فقالوا: ما دام هذا «الفقه» هو الذي يعرّفنا بالأحكام الفرعيّة العمليّة المكتسبة من أدلّتها التفصيليّة، فهو -إذن- متضمّن لهداية آياتي والأخبار والروايات التي تداولوها عن رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلَّم- وجيل التلقي، وظلّوا يترلون من درك إلى آخر، حتى صار مبلغهم من العلم مذكرات وكراريس يكتبونها عن معلميهم وعن فقه المتقدمين، بعيدًا عني وعن سنّة رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- في تلاوتي واتباعي؛ فصاروا غثاءً كغثاء السيل. وكثر قرّاؤهم وقلّ فقهاؤهم، وفشي الانحراف واللحن فيهم، حتى اتخذ الناس علماء جُهّالًا، يفتون بغير علم فيَضلّون ويُضِلّون!! لأنّهم لم يحسنوا تلاوتي، ولم يرتّلوني ترتيلًا، ولم يتلوني حق التلاوة، ولم يتدبروني حق التدبّر،

توهموا أنّني غير كافٍ لهم، وسوّل لهم الشيطان أنّ نصوصي متناهية، ووقائع حياتهم غير متناهية، وعليهم -بناءً على ذلك الوهم- أن يبحثوا عن إجابات لأسئلتهم بعيدًا عنّي، وعن حلول لمشكلاتهم من خارجي، ولو تذكّروا ما أنزل الله -تعالى- فيَّ من قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (العنكبوت:٥١)؛ لأدركوا أنّني كاف شاف، فصّل الله -تعالى- فيَّ كل ما أحلّ وما حرّم، وضمَّن آياتي الشرعة والمنهاج، وجعلني «المحجّة البيضاء، لا يزيغ عنها إلا هالك»، لكنّ أوهامهم تلك -التي لا سند لها- جعلتهم يتجنبون صراطي السويّ.

قلنا: صدقت أيُّها القرآن الكريم، لقد أوضحت بداية الانحراف إلى أن بلغنا الدرك الهابط الذي نتمرّغ فيه، وأشبهنا بذلك أولئك الذين حذّرتنا من مشابهتهم في طريقة حملهم وتحمُّلهم لكتاب ربهم، فهل من سبيل ترشدنا إليه يمكّننا من العودة إلى الأمر الأول؟

إنَّ أهمّ مَا ابتليت به الأمَّة، وأدّى إلى بروز كثير من الأزمات، وظهور العديد من الظواهر السلبيَّة والمشكلات حالة هجر أمتي لي، وهي الحالة التي سقطت فيها مَنْ كانت تُدعى «أمَّة القرآن»، وتردّت فيها بسبب طول الأمد وقسوة القلوب، والانشغال عن آياتي وأنوار هدايتي بكل ما عداه، حتى ألفت الأمّة «حالة الهجر»، فتحوّلت إلى حالة متأصّلة، وظاهرة ملازمة، دون أن يشعر الكثيرون بها. فالكثيرون يرون أنَّ العلاقة بين القرآن المجيد والمسلمين مَا تزال علاقة قويَّة متينة؛ إذ مَا من دولة من دول المسلمين إلّا وهي تقوم بطبع القرآن الكريم وتوزيعه بأعداد تقلّ أو تكثر، وتقوم في الكثير منها مدارس لتحفيظ القرآن الكريم، والعناية به، وتقدّم دروسًا قرآنيَّة في مراحل التعليم بأشكال كثيرة، وترصد الجوائز لحفظ القرآن الكريم وتجويده... إلخ، وبالتالي فإنَّ بعض الناس -بل أغلبهم- لا يستطيعون أنْ يلمسوا أو يسلّموا بأنَّ هناك حالة هجر بين القرآن والمسلمين الذين هم الأمَّة التي تكونت بهذا القرآن، خاصَّة وهم يسمعون آيات الكتاب الكريم صباح مساء -إن شاءوا- تنطلق من العديد من الفضائيَّات والمحطات الإذاعيَّة المتخصّصة لتلاوته، أو المشتركة مع برامج أخرى؛ لكنَّنا -مع أخذ ذلك كلّه بنظر الاعتبار- نؤكّد أنّ الهجر

حالة قائمة، وأنَّ الدليل عليها بيّن في سائر المظاهر السلبيَّة التي تنتشر في كياننا الاجتماعيّ كلِّه، وتنخر في سائر جوانبه؛ من انحرافات في العلاقات بين الحاكم والمحكوم، وخروج عن موازين العدل والأمانة في كثير من النظم، واضطراب في برامج التعليم والتنمية والاقتصاد والعلائق الاجتماعيَّة، وفساد في الأخلاق ونُظم الحياة على اختلافها.

لقد قرأتم القرآن بواسطة المفسّرين والمحدِّثين والأصوليّين والفقهاء واللُّغويّين، فلم تظهر لكم أنواري. فاللُّغويّون كثيرًا مّا يأخذونكم إلى متاهات أنَّ «ما» هنا حجازيَّة، وهناك تميميَّة، وأنّ هذه لغة هذيل، وتلك لغة قريش. وأفهمنا المحدّثون أنّ هذه الآية من آيات الله قرأها أو رواها القارئ الفلانيّ بكلمة أخرى، وأنّها منسوخة بالحديث الفلانيّ الذي رواه فلان وأخرجه علاّن. فإذا جئنا إلى الأصوليّين وجدناهم قد وضعوا أصولًا، وقعّدوا قواعد، واتخذوا من آيات الكتاب شواهد، إنْ هي عَزّزت قواعدهم وشهدت لها قبلوها، فإنْ هي امتنعت نسبوها إلى منسوخ الحكم وباقي التلاوة، فإذا قيل لهم: إنَّ الحكيم يأنف أن يقول كلامًا فُرِّغ من معناه، وصار الأولى به أن يُقال: "كلام فارغ من المعنى، خال من القصد"، وكلام الله أجلّ وأعلى وأعزّ وأكرم من أن يعرّض إلى ذلك، فإنْ قبلت ذلك منهم -ولو على مضض- فبها، فإذا أعياهم الاستدلال على ذلك قالوا: نسخها الحديث الفلانيّ، فإذا ثبتَ لهم أنّ هذا الفلان الذي روى الحديث مجهول أو مدلّس أو كذّاب أشر أو وضّاع بحسب قواعدهم ومواصفاتهم، قالوا: ولكن هذا الذي رواه -ذلك الأبعد الموصوف بكل ما ذكرنا- قد تلقّته الأمَّة -التي أفسدوا عقلها بالتقليد- بالقبول؛ فيستغنى بذلك عن طلب الإسناد له، أو الفحص، وهي طريقة من طرق استثناء المرويّات التي يأباها أيّ منهج وترفض تصحيحها قواعدهم التي وضعوها على كل ما فيها من قصور وثغرات، ومناهجهم التي أصَّلوا لها ورفعوا من شأنها وجعلوها علومًا تفيد القطع واليقين.

أمّا إذا ذهبت إلى الفقهاء ووجدت في فقههم بعض ما يناقض القرآن جاؤوا عليك بخيلهم ورجالهم، وساقوا عليك الجحافل الجرّارة من الدعاوى؛ بدءًا من القول بالنّسخ، إلى التخصيص، إلى الإجمال، إلى الإبهام، المهم ألا يترل أحد على حكم القرآن، فبعضهم يقدّم

خبر الواحد الظنّي المحاط بسائر الاحتمالات على ظاهر القرآن القطعيّ، وقد يقدّم القياس عليهما معًا... وقد... وقد.

أمّا حين نذهب إلى القرآن المجيد -كما أنزله الله على رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم- وننظر كيف قام بتفعيله وتأويله، وتحويل معانيه إلى واقع في مكّة والمدينة، ولا نحكّم في آياته إلا آياته التي يُبيّن بعضها بعضًا، ولا نحكِّم في لسانه إلا لسانه الذي نزل به، فإنّنا نجد حقائق القرآن ماثلة مشرقة هادية شافية واعظة مذكّرة منيرة، لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

فشل محاولات الإصلاح:

إنّ حركات الإصلاح الإسلاميَّة منذ «الفتنة الكبرى» لم تأخذ حذرها من تلك الأصول والقواعد والمقولات التي أُحيط القرآن المجيد بها؛ فجعلت بصائر وأبصار المسلمين تعشوا عن أنوار القرآن وحقائق معانيه؛ ولذلك فإنَّ تلك الحركات والتيّارت كانت تقطع أشواطًا لا بأس بها نحو أهدافها، حتى إذا قاربت نهاية الطريق، وظنّت أنّها بالغة الغاية في يومها أو غدها ارتدت جهودها، وانكفأت عن غايتها، وعادت وهي حسيرة كسيرة إلى نقطة بدايتها تندب حظها، وتقنع نفسها بأنَّها قد قامت بكل ما عليها ولكن الله لم يرد، أو المستعمر قد وقف لها بالمرصاد أو... أو...، وما درت أنّ هذه «التعلّلات» كلّها هي بعض حصاد تلك الأفكار الميّتة والمميتة، ومعطيات تلك الأصول التي كان عليها أن تقوم بمراجعتها وتصحيحها ابتداءً، وأنّه كان عليها أن تدرك أنَّ تلك الأصول والقواعد المتوغلة في مقدورها أن تفترس جهود أيَّة حركة إصلاحيّة، بل وتحوّلها إلى «غذاء لفيروساتها».

إنّ الإصلاحيّين عجزوا عن إقناع دهماء أمَّة المسلمين بما يرونه حقائق إسلاميَّة، أو يعدّونه الإسلام الخالص النقي الذي جاء به رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، ولا يلتفتون -وهم في عنفوان انطلاقاتهم- إلى أنَّ ما يدعون إليه وما يريدون إقناع الناس به إنّما هو إسلام ملتبس مختلط بما ليس منه، لم يخضع بعد لتصديق القرآن وهيمنته ولا لاستيعابه وتجاوزه، ولم تَصُغْ مقدّماته براهين أو وحي ولا دلائل العقول المتعاضدة

المتضافرة مع الوحي. وأنَّ ما يدعون إليه ليس الوحي، بل فهم الآباء وصائغي التراث، والفرق كبير بين الوحي بنقائه وصفائه وبين «أيديولوجي» بنتها عقول أولئك الآباء والأحبار، وحمَّلوها للوحي كُرهًا على كره.

لقد بدأ الدين بـــ«ـــقال الله، وفعل رسوله تنفيذًا لذلك واتباعًا له»، وآل إلى «قال فلان وقال فلان» بلا دليل ولا برهان، أو بما يتوهّمون كونه دليلاً ولا يملكون أمارة أو علامة على تصحيحه، أو بأدلة يتنازع فيها ويتجارى فيها مستدلّون بين مصدّق ومكذّب؛ لأنّهم مختلفون ومتنازعون في أصولها بين محقّ ومبطل، فقد يضعِّف الشافعيَّة ما يصحّحه المالكيَّة والحنفيَّة، وقد يضّعف أهل المدينة ما يصحّحه أهل العراق. والفرق الإسلاميَّة -كلُّها- توافق وتقوّي المنتمين إليها، وتجرِّح وتضعِّف المنتمين لغيرها، فكيف تبقى الأمَّة أمّة وقد أصيبت بذلك كلّه؟! وقد يضعِّف البخاريّ ما يقوِّيه مسلم ويصحّحه، وقد يضعِّف أحمد ويصحّح ابن عيينة، وقد يضعِّف ما يصححه الشيخان البخاريّ ومسلم، إمّا لاختلافهم في التوثيق والتضعيف، أو في شروط الاتّصال ودلائل الانقطاع، أو لأيَّة أسباب وضعوها.

وقد دُرّبت الأمَّة وتَربَّت على التقليد، وقبلت منهم ما شجعوها عليه من مشروعيّة التقليد لها، بالرغم من تفسيرهم له بأنَّه «قبول قول الغير بلا حجّة»، فإذا قيل لهم: إنّ الله -تبارك وتعالى- يأبى ذلك ورسولُه، فقد دعا الخلق إذا روى أحد لهم شيئًا ألاّ يقبلوه حتى يثبت لهم بالأدلة صحّة ما رُوي، لا بالتقليد. وإذا ادَّعى أحد أيَّة دعوى فليس لأحد أن يقبلها تقليدًا، بل لا بد له من إقامة الأدلّة على صحّة ما ادّعى وسلامته، وعلَّم الله الناس ضرورة التأكد من صحة نسبتها إلى الذين نقلوا عنهم، ومع ذلك ينقل سائر الفقهاء والوعَّاظ عن فلان وفلان دون دليل؛ يكتفون بأقوال عائمة، نحو «وعلى ذلك السلف أو الجماهير» دون أيّ دليل على ذلك، ويقولون: «قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم» مكتفين بنقل ذلك عن كتب يعلمون أنَّها ملأى بالأخبار المعلَّقات والمنقطعات والأحاديث الضعيفة، وأحيانًا ما تكون دون ذلك، فماذا يفعل هذا الذي يروي حديثًا قد يكون موضوعًا عن رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلّم- على المنابر أو في الفضائيَّات

ويتلقَّاه الناس منه على أنّه حديث صحيح النقل عن رسول الله تقليدًا لأصحاب تلك الكتب؟! ولم يقم أحد بالاحتياط لنفسه ولدينه وللناس بأنْ يقول مثلًا: "رُوي عن" أو "نُسب إلى"، بدلًا من إطلاق النسبة إلى رسول الله تقليدًا، والله علّمنا أن نقول: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ (البقرة:١١١)، ولم يقل: "هاتوا أقوال أصحابكم أو من تُقلّدونهم من أسلافكم".

وأودّ أن أُبادر -لكي يكون قولي مفهومًا- إلى القول بأنَّ أمّ المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- حين سُئلت عن خلق رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- كيف كان، وكيف تصفه؟! قالت كلمتها الحكيمة الوجيزة العظيمة: "كان خلقه القرآن"[٤]، وهذا -الَّذِي قالته أمُّنا عائشة- يمكن تعميمه في جميع جوانب الحياة، فإذا سُئلنا عن اعتقاد رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- فقد كانت عقيدته القرآن، وإذا سُئلنا عن تصوُّره فقد كان تصوّره القرآن، وإذا سُئلنا عن شريعته فقد كانت شريعته القرآن، وإذا سُئلنا عن علمه فقد كان علمه القرآن، وإذا سُئلنا عن عبادته فقد كانت عبادته القرآن، وإذا سُئلنا عن سُنّته وسيرته فإنَّ سُنّته وسيرته هِيَ القرآن، فالقرآن المجيد كان حاضرًا مهيمنًا بقوة في كل شأن من شؤون رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم؛ جليلًا كان أم دقيقًا، وكان حاضرًا في كل شأن بحيث لا يمكن تجاهله أو تناسيه أو الإعراض عن استدعائه في أيّ شأن من الشؤون، دون تفريق بين مَا يُعدّ شأنًا دنيويًّا أو شأنًا أخرويًّا، غيبيًّا أو من عالم الشهادة، فكانت حياته -صلّى الله عليه وآله وسلّم- وحياة أهل بيته وآله وصحابته -بصفة عامّة- القرآن، منه وبه يُستمد النور، وبه تُصاغ الحياة، وبآياته المحكمة تُرسى دعائم المدنيَّة والحضارة، وتُبنى الأمَّة وتحقّق شهودها الحضاريّ؛ ولذلك كان القرآن المجيد مستقرًّا في القلوب، حاضرًا في المشاعر والوجدان، متحرِّكًا في جوانب الحياة المختلفة. كانوا يقرؤون ألفاظه فيُنزلونها على قلوبهم قبل ألسنتهم، ويُديرونها في عقولهم وقلوبهم قبل أفواههم، ويكيّفون بها واقعهم قبل أن يقوموا بزخرفتها وطباعتها بأجمل الخطوط وأحسن الأوراق؛ لأنَّهم أدركوا أنَّ هذا القرآن المجيد إنَّما أُنزل ليكون مرشد الإنسان وقائده لأداء مهامّه كلّها؛ ابتداءً من العهد الَّذِي بين الله -تبارك وتعالى- وبينه في عالم الذَّر: ﴿وَإِذْ

[٤] أخرجه أحمد في المسند، ومسلم، وأبو داود عن عائشة ﵂ على ما في الفتح الكبير (٢-٣٦٦).

أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف:١٧٢)، ثم ميثاق الخلافة في عالم الاستخلاف: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٣٠)، ثم مرحلة الالتزام بالأمانة، فعند عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال أبين أن يحملنها، ولما عُرضت على الإنسان قبلها ورضي الالتزام بها: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب:٧٢)، ثم قبول الإنسان مبدأ الابتلاء في مرحلة الابتلاء: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (الملك:٢)، ثم مرحلة الجزاء الأخرويّ: ﴿وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ (الجاثية:٢٢)، وفي هذه المرحلة يفترق الناس إلى فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير.

كما أدرك الأوائل كذلك أنَّ هذا القرآن هُوَ الهادي للتي هِيَ أقوم في سائر مراحل الحياة، والمنير لكل سبلها، هُوَ دليل هادٍ ملازم ضروريٌّ للبشر، لا ينفصل عن حياتهم، لِئلا يضلّوا، كما لا يمكن فصله عن الكون والأرض التي استخلف الإنسان فيها، وبالتالي فقد كان القرآن المجيد يُشكّل بالنسبة لهم الروح وآفاقها، والنّفس وجوانبها، والحياة بكل مَا فيها، والوجود بكل عناصره وما يعتمل فيه: فإذا قرأوه استدعوا وهم يقرؤونه ذلك كلّه، ولاحظوا الصلة بين القرآن الكريم وبين كل ذلك، والتفاعل الَّذِي يمكن أن يتم بينه وبين سائر تلك العناصر، فيجتمع لهم لحظتها استحضار أنفسهم وذكرها وتذكيرها، واستحضار الكون وما سخّر الله -تبارك وتعالى- فيه للإنسان، والمهام التي تنتظر الإنسان وهو يتحرك في هذه الأرض إلى أجل مسمّى؛ فذكروا الله -تبارك وتعالى- وذكروا أنفسهم، وذكروا البشريَّة الممتدة مَا بين عالم العهد وعالم الجزاء، وذكروا الكون فبرزت لهم عظمة الخالق العظيم سبحانه وتعالى، وتحقّقت لهم حالة الشهود، وفارقوا حالة الغياب التي يتيه فيها الغافلون.

أمّا القرآن -اليوم- فقد كثر قرّاؤه وقلّ الفاقهون فيه، وكثرت خطوطه ونافس بعضها بعضًا في الجمال والاستقامة، وقلّ متدبّروه، وكثرت فضائيَّاته وإذاعاته وقلّ مرتّلوه، وتوثّقت العلاقة بألفاظه، وأُهملت روحه ومعانيه، وكثر المنادون به، وقلّ التالون له حقّ تلاوته المنفعلون به الذين يجعلونه نبراس حياتهم ومنطلق شهودهم وشهادتهم، وعُطِّلت حاكميَّته، وأُهملت شريعته، وذلك -كلّه- يُعدّ أقسى أنواع الهجر وأشدّها، فأيّ شيء هو «الهجر» إن لم يكن ذلك الذي سقطت الأمَّة فيه؟!

من مظاهر الهجر للقرآن المجيد:

يُعدّ هاجرًا للقرآن الكريم كل مَنْ لم يعرف قدره، ولم يؤمن إيمانًا قاطعًا يربط به على قلبه بأنَّ هذا القرآن المجيد هُوَ المحجّة البيضاء، والمنهج الَّذِي يهدي للتي هِيَ أقوم في سائر الشؤون والشجون، وأنَّه حبل الله المتين وصراطه المستقيم، وأنَّه الكتاب المهيمن على مَا سبق وما لحق، والمرجع للتصديق وإثبات الحق ونفي الباطل في سائر تراث الإنسانيَّة ورسالات النبيِّين ومعطيات الحضارات، وأنّه هدى وبشرى للمؤمنين.

ويُعد هاجرًا للقرآن الكريم مَنْ لم يُوقن قلبه بأنَّه كتاب أحكمت آياته ثم فُصّلت من لدن حكيم خبير، وأنَّه كتاب فصَّله الله -تبارك وتعالى- على علمه، فهو محيط بالوجود وحركته، مستوعب للإنسان واحتياجاته.

ويُعد هاجرًا للقرآن المجيد مَنْ لم يُوقن قلبه وعقله ووجدانه بأنَّ هذا القرآن لا ريب فيه ولا اختلاف فيه، بالحق أنزله الله وبالحق نزل، وأنَّه نزل به الروح الأمين على قلب مُحَمَّد صلّى الله عليه وآله وسلّم؛ ليكون من المنذرين، وأنَّه لم يدخله حرف واحد من حروف شياطين الإنس أو الجن أو من غير الشياطين: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ*وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ*إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ (الشعراء:٢١٠-٢١٢)، وأنَّ رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- تلقى القرآن الكريم من لدن حكيم عليم.

ويُعدّ هاجرًا للقرآن العظيم مَنْ لم يمتلئ قلبه بحبّه، والتعلُّق بكل حرف فيه، والإيمان التام بأنَّه أحسن الحديث: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ

جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر:٢٣)، وأنَّه شفاء لما في الصدور، وأنَّ كل آية فيه إنَّما هِيَ آية تامّة؛ مثل الشمس ومثل القمر ومثل أيّ آية من آيات الله سبحانه وتعالى.

ويُعدّ هاجرًا للقرآن المجيد مَنْ لم يؤمن الإيمان -كلّه- بأنَّ الله -سبحانه وتعالى- قد ضرب للناس في هذا القرآن من كل مثل، وأنَّ هذا القرآن المجيد كاف للبشريَّة بمنطوقه ومكنونه وبكليّاته وتفصيلاته لو أحسنت البشريَّة التفكّر فيه والتدبُّر لآياته لوحّدت كلمتهم وأُصلحت أوضاعهم وأُحطوا بالرّحمة وشملتهم المغفرة: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (العنكبوت:٥١).

ويُعدّ هاجرًا للقرآن المجيد مَنْ لم يدرك أنَّه لو أنزل على جبل لرأيته خاشعًا متصدّعًا من خشية الله تبارك وتعالى، فالقلوب التي لا تخبت وهي تتلوه، ولا تخشع وهي تسمعه، ولا ترقُّ وهي ترتّله، ولا تلين وهي تقرؤه، إنَّما هِيَ قلوب قاسية، النار أولى بها والويل لها.

ويُعدّ هاجرًا للقرآن المجيد مَنْ لا يؤمن ويوقن بأنَّه واجب الاتّباع وسبيل التزكية ومنبع الحكمة والبركة، وأنَّه الكتاب المبين، والقرآن الحكيم، دليل المتّقين ومرشد المؤمنين، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ويُعدّ هاجرًا للقرآن للكريم مَنْ لم يؤمن بأنَّ هذا القرآن قد قصّ على الأمم أكثر الَّذِي كانوا فيه يختلفون، فهو مرجع البشريَّة -كلّها- لحسم الاختلافات الأساسيَّة، لا يمكن أن يكون المؤمنون على شيء حتى يقيموا القرآن المجيد ويتشبثوا بمنهجه ويؤمنوا بعصمته، وأنَّه الكتاب الَّذِي أنزل: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الفرقان:٦)، وإنّه لتذكرة للمتقين وذكر للعالمين: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ*وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ (ص:٨٧-٨٨).

ويُعد هاجرًا للقرآن المجيد مَنْ لم يتلهُ **حقّ تلاوته** ويُرتّله **حقّ ترتيله** ويؤمن باشتماله على الذكر الإلهيّ -كلّه- وأنَّه لا نسخ فيه ولا تبديل يعتريه، وأنَّه كلمة الله تبارك وتعالى، تّمت صدقًا وعدلًا، لا مبدّل لكلماته، وأنَّ كل مَا جاء به هُوَ الحق وهو الأحسن تفسيرًا، وهو الأقوم في كل شيء.

ويُعدّ هاجرًا للقرآن المجيد مَنْ لم يلتزم منهجه، ويُحلّ حلاله، ويُحرّم حرامه، ويؤمن به ويتَّبع سبيله، ويتمسَّك بشرعته ومنهاجه، ويعتصم بسبيله وبحبله.

ويُعدّ هاجرًا للقرآن المجيد مَنْ لا يجعله مرجعيّته في كل مَا يأخذ وفي كل مَا يدع، وفي كل مَا يُحلّ وفي كل مَا يُحرّم، فهو الشرعة وهو المنهاج وهو الكافي الوافي في الأخلاق والسلوك ونظم الحياة وتحقيق العدل والأمانة.

سُبل العودة:

عليكم أن تعالجوا حالة الهجر وتتجاوزوها؛ لتعود الصلة بيني وبينكم إلى ما كانت عليه من قبل، وتسلكوا السبيل القويم، وللوصول إلى ذلك عليكم بالتالي:

* إعادة بناء معرفتكم بي، فإنّ طول الأمد وقسوة القلوب قد باعدت بيني وبينكم حتى أصبحتم على جهل بي وبكرمي وبعطائي وبطاقاتي وبما أودع الله فيّ من مكنونات، فصرتم بحاجة إلى إعادة بناء معرفتكم بي، وهذه يمكن أن تحدث بمراجعة اسمائي وصفاتي وما وصفني الله به من أسماء منبّهة لخصائص وآثار يمكن أن تقودكم إليّ[٥].

* الاطلاع على تاريخ أمّتكم التي ألّفت بين قلوبها من الشعوب الأميّة، والنقلة الكبرى التي أحدثتها في حياتهم حين جعلت منهم خير أمة أخرجت للناس، ثم رصد خطوط الاستقامة والانحراف في علاقاتكم معي منذ البداية حتى اليوم.

[٥] لقد أضفتُ آخر الكتاب جزءًا يختص بأسماء القرآن وصفاته، والتي قد تُعينكم على دوام الاتصال به، وعدم الغفلة عنه أو الإعراض عن ذكره، مستعرضًا مسألة مطولة لفخر الدين الرازي في أسماء القرآن.

* الإدراك -عن اعتقاد يقينيّ- أنَّ القرآن المجيد جعله الله -تبارك وتعالى- فينا بعد رسوله، وبعد ختم النبوّة ليكون النبي المقيم والرسول الخالد، يحمل إلينا الهداية والتسديد والترشيد والمنهج القويم في كل مَا نحن بحاجة إلى هداية وتسديد وترشيد فيه من شؤون وشجون الدنيا والآخرة؛ فإنّه مَا نزل بأحد من أهل الأرض نازلة إلا وفي القرآن المجيد سبيل الهدى والطريق الأقوم لمعالجتها، فالقرآن الكريم يكفينا عمّا سواه، ويُغنينا عمّا عداه، فنقرؤه وكلّنا ثقة بأنَّنا سوف نجد بغيتنا فيه، وسوف نحصل على مرادنا منه إن شاء الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (العنكبوت:٥١)، ولا ينبغي أن نستعجل النتائج ونحن نقرأ القرآن، بل نصبر ونقرؤه وننتظر كرمه، ونفهم أنّ أفهامنا قاصرة مهما بلغت، وطاقاتنا كليلة مهما قويت، وأنّه لا سبيل لخروجنا من الفتن، ووضعنا على سبيل الاستقامة والهدى إلا سبيل القرآن المجيد، ونستمر بالتلاوة والترتيل والتدبُّر حتى يفتح الله -سبحانه وتعالى- لنا من كرم القرآن ومن رحمته مَا يفتح.

* إدراك أنّ لهذا القرآن مداخل عديدة لتلاوته **حق التلاوة**، وترتيله **حق الترتيل**، ولا بد لنا من ملامسة هذه المداخل[٦] وإدراكها والتدرُّب على استعمالها، وتذوّق حلاوة التلاوة في استحضارها، ومنها: «مدخل العبادة»، و«مدخل الأزمة»، و«مدخل الجمع بين القراءتين أو القراءات»، و«مدخل القيم والمقاصد» وما إلى ذلك من مداخل كثيرة تتشكف بالتدبر والإخبات لله والإنابة له.

* الوعي بأنَّ للقرآن المجيد منهجيَّة معرفيَّة قد اشتمل على محدّداتها، لا بد للقارئ من إدراكها وفهمها والتدرُّب على استعمالها، ومن هذه المحدِّدات **التصديق والهيمنة والاستيعاب والتجاوز**، والمسلمون اليوم أحوج مَا يكونون لإعادة بناء علاقتهم بالقرآن المجيد بشكل سليم، ووضع حدّ لحالة الهجر والفصام بينهم وبينه، وإزالة سائر العوائق والحجب بينهم وبينه، وأن يدركوا أنَّ القرآن الكريم -وإن كان الله سبحانه وتعالى قد يسّره للذكر- لكن قارئه يحتاج -مع ذلك التيسير- إلى إدراك خصائص القرآن المجيد

[٦] تعرضنا لهذه المداخل في رسالتنا: العلواني، طه جابر. الجمع بين القراءتين. (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥).

ومعرفة القرآن المجيد والإلمام بمنهجيَّته وإدراك خصائص خطابه، لعلّه يتمكن من الوصول إلى حالة النظر الخالي من الشوائب التي تحول بين قلب الإنسان وبين فهم معاني القرآن المجيد وملامستها.

* فهم أنّ القرآن المجيد ﴿لا يمسُّه إلا المطهرَّون﴾(الواقعة:٧٩)، و«المطهّرون» غير «المتطهرين»؛ فالمتطهّر هو: مَنْ طهَّر نفسه بنفسه، وهو أمر مطلوب ولا شك مع القرآن المجيد؛ أمّا «المطهَّر» فهو من طهَّره الله -سبحانه وتعالى- أو من طهّره غيره، أيّ طهّر قلبه وقوى وعيه وجعله مهيئًا للعروج إلى علياء القرآن المجيد، والتعرّض لنفحاته.

* القرآن المجيد أنزله الله -جلّ جلاله- على قلب نبيّه -صلّى الله عليه وآله وسلّم- لأنّه العضو الوحيد في الإنسان القادر على استقبال وتلقّي «القول الثقيل» كما أنزله الله تبارك وتعالى، ولا بد من تطهّره ليتلقّى القرآن الحكيم؛ وهذا التطهّر يقتضي التطهُّر من الموانع كلّها. ومنها: إبعاد الشياطين ووساوسها عنه، وتنقيته من الأفكار والمسلّمات المغايرة، فهذا الكتاب لا تُخالط بشاشته ومعانيه القلب اللّاهي المشغول بسواه، ولا يُعطي نفسه لقلب لا يسمع له، وينصت، ولا تغشى أنواره قلبًا يعصف به اللّغو فلا يصفو له.

* إنَّ القلب الَّذِي يستقبل القرآن الكريم قلب لابد أن يستولي عليه الشعور بأنّه -حين يقبل على القرآن الكريم- إنّما يقترب من حضرة القدس، فالقرآن كلام الله -جلّ جلاله- فإن لم يشاهد حضرة القدس، ولم يسمع، فإن الله -تبارك وتعالى- منزّل القرآن الكريم يسمعه ويراه. فعليك أن تدرك أنّه يسمعك إن أحسنت التلاوة فتلوت القرآن حق تلاوته، أو أسأت الترتيل؛ فإنْ رضي الله -جلّ جلاله- على تلاوتك طهّرك، وهيّأ قلبك لاستقبال نفحاته، وجعل بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابًا مستورًا، فلا يصلك أذاهم، ولا ينال منك مكرهم، وطهّرك تطهيرًا، وأعانك على استكمال مؤهّلات مسّ معاني وأنوار الكتاب المكنون، وهيّأك للعروج إلى عليائه، والانفعال التام به، وجرى في قلبك ووجدانك مجرى الدم، فقوّم تصوّرك، ووضّح رؤيتك، وصحّح عقلك، ونقّى عقيدتك، وبارك وأنار فكرك، وتظل تقرأ وترتقي حتى تجد نفسك وكأنّك تلقّى القرآن المجيد من المتلقي الأول له صلّى الله عليه وسلّم، فقراءة وتلاوة وترتيل القرآن الميسَّر للذكر

حق التلاوة لا بد لها من تطهير ربانيّ لا يحظى به إلا المطهّرون: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأنفال:٢)، ومن بلغ تلك المرتبة، ووصل إلى هاتيك الدرجة، فقد بلغ المنى، وأدرك السعادة، وصار يتنعّم بالقرآن، وكأنّه يضم النبوّة بين جنبيه، فإلى القرآن من جديد يا عباد الله.

لعلّ ما سبق -إن شاء الله- يمكّنكم من إعادة بناء علاقة صحيّة سليمة بيني وبينكم تُعيدكم إلى رحابي، ويمكنني -آنذاك- أن أقود خطاكم وأرشد مسيرتكم بالقول الثابت والرأي الرشيد والقول السديد، ثمّ لا بد من عدم تكرار ما حدث معي مرة أخرى، فلا انشغال بغيري ولا انصراف عني.

*** *** *** *** ***

السؤال الثاني

هل اشتملت كرائم آياتك يا قرآن على منهاج كامل للعروج إلى مستوى التطهّر لمسّ معاني آياتك والقدرة على تدبّرك؟ إن كان ذلك المنهاج موجودًا فما هو؟ وما آياتك الدالَّة عليه؟ وكيف تكشف لنا عنه؟ وما آليّة تطبيق ذلك المنهاج في الواقع؟ وهل هي متاحة لكل شخص؟

إجابة القرآن:

التزكية والتّطهّر:

أمّا سؤالكم الأول فجوابه: بلى؛ قد اشتملت آياتي على منهاج كامل للتدبُّر والعروج بكم إلى مستوى «التطهُّر» الذي لا يمس معاني آياتي إلاّ من اتَّصَفَ به، وهو منتشر في سوري كلّها، إذ إنّ التطهّر ثمرته «التزكية» التي دعوتكم إليها وجئتكم بها، وهذه «التزكية» لم تخلُ سورة من سوري من حديث عن بعض معالمها أو شروطها أو أركانها أو صفاتها، وكيف أنَّ الفلاح والنجاح في تحقيق الأهداف مرتبطان ارتباطًا وثيقًا بها: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا*وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس:٩-١٠).

تقتضي هذه «التزكية» -أول ما تقتضي- التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والالتزام بكل ما فرض الله وجاءت آياتي به، واجتناب كل ما نهى الله عنه، والاتّصاف بكل ما وصف الله به المؤمنين المتّقين، والابتعاد عن كل ما هو من صفات الكافرين والمنافقين والمشركين، والاستعانة -عند الملمات- بذكر الله -سبحانه- والصلاة: ﴿اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ﴾ (البقرة:١٥٣) لنيل شرف المعيَّة الإلهيَّة، فتكون قراءتكم لآياتي بمعيَّته -سبحانه- وهو الأكرم الذي أنزل عليكم آياتي لتهتدوا بها، فإذا قرأتم آياتي فهو معكم يأخذ بأيديكم إلى دقائق هدايتي، وحقائق شريعتي، وقويم منهاجي، فلن تضلّوا بعده أبدًا، ولن تختلفوا إلا إذا اختلفت قلوبكم عليَّ.

ولقد أخبركم الله في محكم آياتي بأنّني مشتمل على الشرعة والمنهاج، قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة:٤٨)، وعلمتكم كيف تزيلون الحجب بيني وبينكم: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (النحل:٩٨)، ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا*وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْاْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ (الإسراء:٤٥-٤٦)، وأمرتكم بتطهير القلوب؛ لأنّها موضع تنزّلي وموضع نظر ربكم جلّ وعلا.

وقد بيّن لكم مَنْ أنزلني الله على قلبه أنّكم إنْ اختلفتم في آياتي فالأولى بكم أن تقوموا عنّي، ولا تحملوا آياتي على غير محاملها، ولا تُكرهوها على النّطق بما تريدون، ولا تجعلوا منها شواهد زور على ما تميل إليه نفوسكم وما تَهْوون، وما أبعدني عن أن أكون شاهد زور أو معضِّدًا لباطل أو معزّزًا لانحراف، وذلك -كلّه- لن يكون في صالح طهارة قلوبكم وتزكيتها وتهيئتها لمسّ معاني آياتي والاقتراب من حقائقها وجعلها بصائر لكم، بل ستجدون -آنذاك- بيني وبينكم حجابًا مستورًا، فأنا -بالنسبة للذين يُقبلون عليّ قانتين خاشعين مخبتين طالبين العون، مؤمنين باشتمال آياتي في كل شأن على الحق، وعلى ما هو أحسن تفسيرًا- سأوفيهم حاجاتهم، وأهديهم سبلي، وأُعينهم بمنهاجي. أمَّا من أقبل عليَّ مستكبرًا، يرى الهداية في غيري، أو يرى أنّني عاجز عن أن أوفّيَه حسابه، وأشفي غليله، وأعالج مشاكله، فالله -تبارك وتعالى- الذي أنزلني لم يأذن بفتح أبواب خزائني للمستكبرين، بل قال: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ (الأعراف:١٤٦)، مثل هؤلاء المستكبرين لا تنفعهم مطالعتهم لي؛ لأنّها ستزيدهم عمى على عماهم بما ظلموا.

وحين يتتبَّع آياتي من حقّق معنى «التزكية» و«التطهّر» في قلبه ونفسه يجد منهاج تدبُّري وسبيل العروج إلى معاني آياتي ظاهرًا في كل ما جاء ذكري فيه، فالذي اتصف بالتطهُّر سيكون قادرًا على ممارسة ترتيل آياتي، والصبر على الكشف عن معانيها،

والغوص وراء دقائقها وحقائقها «صبر الرتيلاء»[٧] في بناء بيوتها ونسجها من ذرات لا تكاد تُرى، والصبر على حسن تلاوتي والقيام بحقّها، ثم التدرّب على التدبُّر في آياتي، فعلى ذلك يقوم عطائي، فليدّرب مَنْ شاء ذلك قوى وعيه -كلّها- على التدبُّر بمستوياته المختلفة ووسائله المتنوّعة؛ من تذكّر للعهد بين الله وبين آدم وبنيه، وتذكّر لنعم الله -تبارك وتعالى- التي لا تُحصى عليه، وتذكُّر الآخرة، وقراءة مُنْزلي عليكم لآياتي، حيث يقرؤني الله -تبارك وتعالى- بنفسه وبذاته العليَّة في الجنّة ليفصّل للناس كل ما كانوا فيه يختلفون، ومنها ما اختلفوا فيه من معاني آياتي. وتلك القراءة سيختص بالاستماع إليها أهلي وأصحابي وقرّائي الذين كانوا يتلونني حق التلاوة، ويرتلون آياتي حق الترتيل، ويتطهَّرون للعروج إلى معانيها، ويتعقَّلون ما جئت به، ويتفقَّهون فيه ويتفكّرون، فكل تلك المستويات لا بد أن يتحلَّى بها المتطهّرون؛ الذين يريدون العروج إلى مستوى الفقه والفهم لآياتي، فمنهج التدبُّر مفصَّل تفصيلًا في آياتي وسوري، لا يزيغ عنه المهتدون. وقد كشفت عنه وبيَّنت شروطه، وهو متاح لـــمَنْ يريد ذلك، بالقراءة المصحوبة بمعيَّة الله المنشأة باسمه، المتدرّجة في معارج التلاوة والترتيل، والمنطلقة من منطلقات التدبُّر والتذكّر والتفكّر والتعقّل، آنذاك سوف يجدني هؤلاء المطهَّرون بجوارهم، أرشّد خطاهم وأسدّد آراءهم، وأرشّد مسيرتهم، فلن يتيهوا ولن يضلوا ولن ينحرفوا.

احذروا الهجر:

قلنا: ذلك يعني أنّ تدبُّرك بعد كل تلك الشروط يقتضي أن لا يغفل القارئ عنك لحظة من ليل أو نهار، وأن يكون على اتصال دائم بك وحوار مستمر معك!

قال: هذا صحيح: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (الزخرف:٣٦)، إضافة لذلك فإنّ المتطهّر في حاجة إلى أن يقيم معي صلة لا تفتر ولا تنفصم، فإنّني أرفض الهجر، ومَنْ هجرني فإنّ هجري يورثه قسوة في قلبه، وسيقعد ملومًا محسورًا، سواء أهجر لفظي أم أحكامي أم شريعتي أم مواعظي، أم الاعتبار بقصصي

[٧] الرتيلاء: دابة سامّة تقتل. على ما في كتاب "العين" للخليل أحمد. والرتيلاء والرتيل من الحشرات. على ما في المحيط في اللغة. وقد عرفت الرتيلاء بالصبر الطويل عند بناء بيوتها.

وأمثالي، فأيُّ هجر يقع لي من أصحابي وحملتي بأيّ مستوى كان ولأيّ وقت طويل أم قصير سيترك ظُلمة في نفوس وعقول وقلوب أولئك الهاجرين، وسيباعد بيني وبينهم، ويوجد فجوة وانقطاعًا لا يتوقفان إلا بالتوبة النصوح، والعودة الخالصة المخلصة لي؛ فما أُنزلتُ إلّا لأكون ساكنًا في سويداء القلوب، مقيمًا في ثنايا العقول؛ لأنّي الحارس الأمين الذي أحرسكم من ذلك الشيطان العدو المبين لكم، الذي يجري منكم مجرى الدم، وأنا المطهِّر لدمائكم وعقولكم، والشافي لأفئدتكم، لا أغفل لحظة عن مهمتي في هدايتكم، فلا ينبغي أن تغفلوا عنّي لحظة من ليل أو نهار، فأنا ذكركم وذكر الله فيكم: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (الزخرف:٣٦)، وأنا مصدر الحياة الطيّبة لكم لأنّي ذكركم: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (طه:١٢٤)، ومنهج تدبُّري الذي بيَّنت لكم معالمه، وأوضحت لكم مفاصله، ويسرته لفهمكم، أنا محجتكم البيضاء، لا يزيغ عنّي إلّا هالك، وأنا وسيلتكم إلى بلوغ ذلك الذي تتمنَّون مني.

إنَّ أصحابي وأهلي في حاجة أولًا إلى «التدبُّر» المستمر، وإلى أن يصبروا ويُصابروا ويُرابطوا ويُكابدوا، لكنَّني بعد أن آلفَهم ويألفونني سوف لن يفارقوني، ولن يصبروا على البعد عنّي، ولن أفارقهم ولن أبتعد عنهم، بل سأكون هاديَهم وقائدهم ومُرشِّد مسيرهم إلى الحياة الطيّبة في الحياة الدنيا، وإلى الجنَّة في الدار الآخرة، وسأزيل وحشتهم، وأباعد بينهم وبين غربتهم، فلن يشعروا باغتراب وأنا معهم أينما حلُّوا أو ارتحلوا، ولن يحسُّوا بوحشة وأنا بين أعينهم أو بين أبصارهم وبصائرهم، فأنا نِعْم الصديق لـــمَنْ صادقني، ونِعْم الرفيق لـــمَنْ صحبني، ومَنْ شاء من المؤمنين فليجرّب.

فمنهج «التدبّر» لآياتي هو السبيل إلى كل ما بعده، وهو الموصّل إلى ما وراءه، فمَنْ لم يتقنه ويمهر فيه ويتعلّم مداخله ووسائله وأدواته فلا يطمع في صحبتي.

*** *** *** *** ***

السؤال الثالث

أيّها القرآن، أنت إذًا كتاب هداية واستخلاف، فما هو منهاجك في بناء الأمم المستخلفة ابتداءً؟ وكيف تؤلّف بين الناس أو توحّدهم وتحوّلهم من أفراد وأسر وشعوب وقبائل لتجعل منهم أمّة؟ وإذا حدث وتفكك بناء الأمّة التي توحَّدت بهدايتك تحت ضغط أيّ نوع من العوامل والضواغط فهل نجد في سورك وآياتك منهاجًا لتصحيح المسار، وإعادة البناء؟ وما هي دعائم ذلك المنهاج وقوائمه؟

إجابة القرآن:

بالطبع، أنا كتاب هداية ودليل استخلاف، أنزل الله على كل من الرسل شيئًا من هدايتي وهديي، ثم جمع هدايتي وهديي ليتزّلها على قلب خاتم النبيين وإمام المرسلين رسول الله محمد صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ*بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ (ص:١-٢). ومعنى كوني كتاب هداية هو أنّني أجيب على أسئلة حياتكم كلها، فلا تسألونني عن شيء فيه هدايتكم ورشدكم إلا هديتكم للتي هي أقوم، وأخذت بأيديكم إلى التي هي أكثر سدادًا وعدلًا، وباعدت بينكم وبين الشيطان ووساوسه؛ سواء أكان من شياطين الجن الأخفياء عليكم، أم من شياطين الإنس الذين يعملون من داخلكم ليُوضِعوا خلالكم. ومنهج الاهتداء بي أوضحته وبيَّنته، فلم يعد فيه غموض أو إبهام، يستطيع أن يدركه -عند تلاوتي وتدبّر آياتي- علماؤكم وعامَّتكم، قرّاؤكم والأميُّون منكم.

وأمّا كوني كتاب استخلاف فذلك -أيضًا- بعض ما أتصف به، فقد استوعبت مشكلات عصر التنزيل، وتجاوزت؛ لأنّي كتاب كل عصر ومصر، أستوعب مشكلات أيّ عصر ثم أتجاوزها إلى عصر تال... وهكذا. وكوني كتابًا مكنونًا يجعلني قادرًا على «الاستيعاب» و«التجاوز» بالكشف عن مكنوني الذي يمسّه المطهّرون في كل عصر، وبعض الحكمة في إنزالي كاملًا على قلب نبيكم -صلى الله عليه وآله وسلَّم محمد خاتم النبيين- أن أقوم بدوري في الهداية إلى التي هي أقوم، فحين استخلف الله آدم و لم يستطع

آدم أن يصدّ محاولات الشيطان عن نفسه تلقّى كلمات من ربه؛ فتاب عليه، وهي بعض ما اشتمل عليه من دعوات الإنابة والاستغفار والرجوع إلى الله والإنابة إليه، وشاءت حكمة الله -تبارك وتعالى- أن يحميكم بي يا أبناء آدم، وبالرسل -الذين حمل كل منهم شيئـًا من هدايتي- إلى أن جمعت وأنزلت كاملًا على قلب محمد -صلّى الله عليه وآله وسلَّم- وجمعت فيه، فأنا الذي أحمل ما يهديكم في ظلمات البر والبحر، ويرشّد مسيرتكم في هذه الأرض، ويقود حركتكم باتجاه العمران الذي كُلّفتم به؛ ولذلك فقد جمعت بين دُفّتيَّ كل ما يمكّنكم من صناعة الحياة الطيّبة في هذه الدنيا، واجتياز اختبار الابتلاء فيها.

لقد جئتكم بـ«مقاصد عليا» و«قيم مطلقة» في مقدمتها «التوحيد»، ومَنْ وحَّد الله -تبارك وتعالى- وربط قلبه على الإيمان بوحدانيّته فهو لا يقدّم لله -تبارك وتعالى- نفعًا بذلك، وهو المنزَّه عن النفع والضرر، بل يقدّم شيئًا يُطهّر قلبه به، ويحرّر وجدانه، ويرشِّد عقله، ويسدِّد قوله، فـ«التوحيد» حجر الأساس في تحرير الإنسان من الدونيَّة، وإشعاره بأنَّه كفء لأيّ إنسان آخر، لا يعلو أحد على أحد؛ فـ"كلّكم لآدم، وآدم من تراب"، أبوكم واحد، وربّكم واحد، ومصادر نشأتكم واحدة، ومصائركم واحدة، فأنتم متساوون ولا ينبغي لبشر أن يسمح باستعلاء بشر عليه، ولا أن ينظر لبشر مثله على أنَّه يعلو عليه أو يمتاز إلا بالتقوى؛ لتكون التقوى هي ميدان التنافس بينكم، لا السلطة ولا المال ولا الجاه ولا الأحساب ولا الأنساب ولا الرفاهيّة؛ إذ إنَّ أهم مصادر الفساد في الأرض هو البغي والحسد والتنافس على الأموال والجاه والنفوذ والسلطان ونحو ذلك مما لا دخل له في إنسانيّة الإنسان وتشكيل قلبه وضميره ووجدانه؛ لأنَّها من الأعراض الزائلة التي لا ينبغي أن تكون مصدر علوٍّ أو استعلاء أو تغيير في مكانة البشر.

كما إنَّ قيام الإنسان بمتطلَّبات الرسالة التي نزلتُ بها على قلب محمد -صلى الله عليه وآله وسلّم- يحتاج إلى عزيمة ورشد ووجدان متحرّر من الخوف على النّفس أو العرض أو المال أو الحياة أو الحريَّة، وذلك التحرُّر لا يمكن أن ينتج إلا عن «التوحيد» والإيمان بأنّ الله -تبارك وتعالى- مالك الملك القادر على كل شيء الرازق لكل مخلوق، وأنَّه ما من

إنسان يملك لآخر ضُرًا ولا نفعًا إلا بإذن الله، فالتحرُّر والحريّة والانعتاق من هيمنة مَنْ يريد التسلّط على غيره من أهل البغي والحسد وشهوة السلطة واستعباد الآخرين لا يتم إلا بـــ«ـــالتوحيد»، الذي يذكّر الراغب بالتسلّط على الآخرين أنّه عبد مملوك لله -تعالى- فلماذا يحاول التسلُّط على إخوانه من عباد الله الآخرين، وأقول لذلك المستضعَف الذي يريد الذين استكبروا أن يستذُلوه ويستضعفوه ويفرضوا سلطانهم عليه: "لا تسمح لهم بهذا، وارفض ذلك منهم، وإنَّ الله الذي خلقك وخلقهم ناصر المستضعفين وقاصم الجبّارين المستكبرين، فما ينبغي لعبد لله أن يرضى بالعبوديّة لسواه"... إلى غير ذلك من فوائد التوحيد وآثاره في النّفس والعقل والسلوك والعبادة ونظم الحياة التي بنيتُها.

وبالتوحيد يشق الإنسان الموحِّد السبيل السويّ إلى تحقيق «الاستخلاف والعمران» ودرء الفساد والطغيان: ﴿ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ*وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَىَ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (النحل:٧٥- ٧٦).

وكذلك جئتكم بـــ«ـــالتزكية» -التي عرفتم ضرورتها وأهميَّتها وارتباط الفلاح وصلاح العمل بها- لكي يؤتي العمل نتائجه المثمرة: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا*وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس:٩-١٠)، ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (المؤمنون:١)، ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا *مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا*خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاء لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ (طه:٩٩-١٠١)، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى*قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا*قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى*وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ (طه:١٢٤-١٢٧)، وقد خاب مَنْ افترى، وقد خاب مَنْ استعلى، فالله -تعالى- لا يُصلح عمل المفسدين، ولا تُثمر أعمال المشركين ثمارًا دائمة مستمرة، وما قد يُرى من مظهر عمرانيّ لتلك الأعمال فإنّه سريع الزوال، يتعلق بالظاهر ولا يبلغ

من الحقيقة شيئًا؛ لأنَّ مَنْ لم يزكّوا أنفسهم لن يستطيعوا أن يزكّوا غيرهم ولا أن يصلحوا الفساد، وما يحدثه المفسدون لا ثبات له ولا قرار ولا ثمار.

وعلّمتكم أنَّكم ما أُهبطتم لهذه الأرض ولا خُلقتم فيها إلا لإعمارها، وإبراز دلائل الخلق فيها والإبداع الإلهيّ والعناية الربانيّة، وما يوجه ويقود ويرشد إلى خالقها سبحانه وتعالى، فإذا ساد العمران، وأخرجت الأرض كنوزها بإذن ربها على أيديكم؛ فستكونون قادة قافلة التسبيح الكونيّ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء:٤٤)، لقد وجهتكم إلى كل ما فيه إبراز لكرامتكم على الله -تبارك وتعالى- وتكريمه -جلّ شأنه- لكم، ومن هذه الكرامة تفضيلكم على كثير ممن خلق تفضيلًا بإناطة تلك الأمانات والمسؤوليّات بكم: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (الإسراء:٧٠). وقد فصَّل الله لكم فيَّ ما أوجب وما حرَّم وما أحلّ؛ لأنَّني الكتاب الذي فصّله الله على علمه، وأنزله بمكنون دلائل قدرته وأسرار خلقه، فأين تذهبون وأنتم المسؤولون عن تحقيق غاية الحق من الخلق؟ وإعطاء كل ذي حق حقه؟ وما سألتموني عن شيء من قضايا الهداية إلا ودللتكم على سبيل الحق والخير والهدى فيه!

بناء الأمم:

أمّا منهجي في بناء الأمم فيبدأ ببناء «الرؤية الكليَّة» القائمة على تعريف الإنسان بنفسه وبربه، وعلاقته به سبحانه، وتعريفه بالكون وموقعه فيه وعلاقته به، والحياة وماهيَّتها، والزمن وعلاقته به، والتاريخ والمصير والمعرفة وضرورتها له، والعمل على تمكين الإنسان من إزالة حيرته والجواب على «الأسئلة النهائيَّة» التي قد تُقلق عقله وضميره ووجدانه، وهذه الرؤية تجعله على بيّنة من ربه، ومعرفة بكل ما حوله وما يحيط به، لا يغمض عليه شيء مما يهمه ولا تلتبس به السبل، يعرف المستقيم منها ويعرف المنحرف، ويميز الخبيث من الطيّب، فهذه الرؤية -حين تصحّ وتسلم- الميزان الذي تُوزن به الأمور.

الأمّة والتأليف بين أفرادها:

فإذا اتضح ذلك له -بإيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر- علَّمتُه بعدها كيف يزكِّي نفسه، وما الذي يستطيع أن يتزكّى به، وما الذي عليه أن يجتنبه لئلا يقع في التدسية، وحين يستوعب ذلك أعلّمه أنّه ما خُلق ليعيش وحده، وأذكّره بأبيه آدم الذي خُلق من نفس واحدة، ثم خُلق له زوجه دون فاصل كبير، فكأنَّه -من حيث مهمة الاستخلاف والعمران- نصف يكمّله نصف آخر؛ ألا وهو زوجه. وإن اختلف الحال بالنسبة للجزاء في الآخرة، فالآخرة دار جزاء، ليست بحاجة إلى الروابط بين الإنسان وغيره؛ ولذلك فإنَّ الإنسان في الدار الآخرة يأتي ربه فردًا؛ لأنّه لن يفعل شيئًا هناك إلا أن يُحاسب ويُجازى، ثم يدخل في الجنّة أو في النار وفقًا لذلك، فـ«الفرديَّة» هي الأساس، لكنّ العمل في الدنيا والمهام الإنسانيَّة فيها تتوقف على «الجماعيَّة»؛ ولذلك كان «نظام الزوجيَّة» وخلق الله -تعالى- للناس ذكرًا وأنثى، وبثه منهما رجالًا كثيرًا ونساءً؛ لتكون القبائل والشعوب وما إليها قادرة على التعارف، ثم التآلف، ثم التعاون، وبالتالي فإنَّني أعلّمكم -ذكورًا وإناثًا- كيف تكوّنون أسرًا وتعيشون معًا وتتقاسمون المسؤوليّات والمهام المختلفة؛ لتتكوّن منكم بعد ذلك شعوب وقبائل. وهنا سوف تجدون أنفسكم في حاجة إلى مجموعة من العلائق والروابط، وأنواع المعاملات والتداخل والتفاعل الذي سيفرض أن تحصّنوا حياتكم وتجمعاتكم بمعارف وعلوم ونظم تحدّد لكلٍّ ما له وما عليه؛ دفعًا للتنازع ودرءًا للاختلاف؛ ولتتمكنوا معًا من تحقيق غاية الحق من الخلق؛ ولذلك فقد أنزل الله فيَّ كل ما يمكّنكم ويساعدكم على بناء أقوى الدعائم في العلاقات، وأدق الوسائل وأرقاها في مجالات السلوك والعلاقات التي تقوم بينكم، فتعاونكم على البرّ والتقوى وتجنُّبكم للإثم والعدوان سيكفل لكم إيجاد نوع من الألفة، ويُهيّؤكم للتعاون وللتداخل المنضبطين بالضوابط التي جئتكم بها.

آنذاك ستكون مجموعة المفاهيم المنبثقة عن الرؤية الكليّة والعلائق والروابط التي تقوم بينكم مرشّدة مهديّة بآياتي، التي تُعَدّ وسيلتي لإعدادكم لبناء «الأمّة»، تلك الآيات التي جعلها الله -تبارك وتعالى- فيما نزلت به على قلب رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلَّم- أعلى وأدق وأهم صيغ الجمع بينكم، فهي أدق وأعلى وأهم وأعظم من صيغة الأسرة والقبيلة والشعب ووسائل تنظيم العلاقات من حكومة ودولة وما إليها.

فـــ«ـــالأمَّة» -كما وردت آياتي بها- بدءًا من «الفرد الأمَّة» التي ضربت لكم بإبراهيم مثلًا له: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل:١٢٠)، ثم «الأسرة الأمَّة»: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ (البقرة:١٢٨)، ثم «الأمَّة» الكبيرة التي تكون أمَّة مجتمع كامل مستوف لمقوّمات الأمَّة: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء:٩٢)، ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ (المؤمنون:٥٢)، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنعام:٣٨)، ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ (الرعد:٣٠)، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾ (النحل:٣٦).

«الأمَّة» هي الصيغة الوحيدة التي تمكّنكم من القيام بالوفاء بالعهد الإلهيّ، وأداء مهمّة الاستخلاف، والقيام بحق الأمانة، والنجاح في اختبار الابتلاء، وقد أوضحت لكم بعد ذلك أنَّني لا أريد -وقد أرسيت دعائم المساواة بينكم بالتوحيد والإيمان والمسؤوليّة- أن أوحّد بينكم توحيد اندماج؛ لأنّ ذلك النوع من التوحيد تصحبه عوامل قسريّة كثيرة قد تؤثّر سلبًا في خصائصكم الفرديَّة، ومهامُّكم التي أوكلها الله لكم تحتاج إلى التوكيد على تلك الخصائص وعدم التفريط بها، بل وضعها في إطار الاعتدال لئلا يبغي بعضكم على بعض، أو يطغى بعضكم على بعض، وأصول تلك الخصائص ينبغي أن تبقى وتستمر؛ لأنَّ لها في حياتكم وظائف هامَّة لا بد من القيام بها، وتلك الوظائف تتوقف على خصائصكم الفرديَّة؛ ولذلك فقد اخترت لبناء «الأمَّة» -كما هي في منظوري- صيغة «التأليف»؛ لأنّ «التأليف» يوجد الرابط المطلوب لإقامة العلاقات، وبناء أمَّة من الأفراد والأسر والشعوب والقبائل بمفاهيم ورؤية ومثل وقيم تحقّق -في إطار التأليف بين قلوبها- كل ما تريد تحقيقه، دون مساس بالخصائص الذاتيَّة لكل فصيل أو قبيل أو فرد أو إلغائها؛ ولذلك فإنَّ الله -تبارك وتعالى- حين أرسل رسله ببعض ما جئت به، ثم أرسل رسوله محمدًا -صلّى الله عليه وآله وسلّم- بما أنزلني على قلبه قد أكد على صيغة «التأليف»، وبيّن أنَّ هذه الصيغة لا تتحقق بالوسائل المادَّية ولا بالطرق الحسِّيـــَّة، بل

تتحقَّق بتأليف بين القلوب يصنعه الله -تعالى- بنفسه ويهيء له أسبابه، ويجعل هذا التأليف دائرًا حولي لا ينفصل عن مداري، فأنا الذي أبيّن صحّة وسلامة الرؤية، وأنا من أبيّن صحّة وسلامة العقيدة والتصوّر؛ ولذلك أخبر الله رسوله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- بما أنزل فيّ أنّ هذا «التأليف» لا يقوم على المال ولا على الأمور الماديَّة، فلو أنفق رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- ما في الأرض جميعًا للتأليف بين قلوبهم ما حقّق ذلك؛ لأنّه عمل إلهيٌّ يرتبط بي، ويقوم على دعائم آياتي، فبقدر ما يتمسّك أولئك الذين -ألّف الله بين قلوبهم- بي، بقدر ما يجتمعون علي التقوى وبقدر ما أوحّدهم بعد التأليف بين قلوبهم. وبقدر ما ينفصلون عن مداري أو يهجرونني أو يتّبعون غيري يفقدون ألفتهم، ويرتكسون في حمأة العداوة والبغضاء: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ*وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ (المائدة:١٣-١٤).

إذن إذا ما تجنّبت أمَّتي ما سقط فيه الآخرون، وتحقّق ذلك الالتزام بي، وولدت نواة «الأمّة» فالأرض بالنسبة لهم تصبح مسكنًا آمنًا ينبغي أن يسوده الأمن، وتظلّله الطمأنينة، وتلفُّه السكينة، وتصبح الأرض -كلّها- لهم مسجدًا وطهورًا، فلا يتنازعون على أجزائها، ولا يقتتلون على حدودها؛ لأنَّ الأسرة الإنسانيَّة -كلها- تصبح أسرة واحدة، والأرض لها ميدان، يمشون في مناكبها؛ ليستثمروا خيراتها ويأكلوا مما أودعه الله من رزق كاف لهم جميعًا فيها. وإذا أراد منحرف الإفساد فيها وقفت له الأسرة البشريّة الممتدّة، وحالت بينه وبين الإفساد في مسكنها الواحد.

أسباب تفكّك الأمّة:

ويواصل القرآن إجابته فيقول: إنَّ «الأمّة» التي بنيتها وأنا أتنزّل على قلب عبد الله ورسوله محمد -صلّى الله عليه وآله وسلّم- لأكون ميسّرًا للذكر كانت أمّة أمم وأمّة قطبًا، فهي أمّة بنتها آياتي وشادتها أمّة المرسلين الموحّدة: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا

رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء:٩٢)، فما من نبيّ ولا رسول إلّا كان له في بناء أمّتي -التي جدّدت بناءها وأكملته- نصيب، وكان من الممكن أن تستمر في قوتها وعنفوانها متينة راسخة الدعائم، ولكن من سنن الأمم التي يبنيها المرسلون وتقوم على كتاب منزّل مثلي أن تحافظ على قوتها وعنفوانها مادامت متمسّكة بالكتاب -كله- مقبلة على كل ما جاء به، ملتزمة بكل توجيهاته دون تفريط ولا إفراط، فإذا نسيت الأمَّة حظًّا مما ذُكّرت به؛ بدأت عوامل التفكّك تفعل فعلها فيها، في بداية الأمر تبدأ الآيات عملها على سبيل الموعظة والتذكير بألفتها وما بينها من روابط، فإذا ثابت الأمّة إلى رشدها، وأعادت بناء ما رثّ أو تقادم من علائقها بكتبها، واحتكمت إليها، تراجعت عوامل التفكك، وعادت إليها أُلْفتها. أمَّا إذا أعرضت عن ذلك وبقيت سادرة في غيّها وقالوا: ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ (سبأ:١٩) فستزداد بينها العداوة والبغضاء، وسينكر كل منها الآخرين، وتفشو الاختلافات وتنتشر المنازعات وتتناكر القلوب، وتضمحل ألفتها وتنهار شيئًا فشيئًا، فينكر كل منها صاحبه، وتنكر كل مجموعة أختها، وكل فريق سوف يجد نفسه في خلاف مع الفرق الأخرى، ونزاع معها، يلعن بعضها بعضًا، ويضرب بعضها رقاب بعض، حتى تثوب إلى رشدها وتعود إلى ما ائتلفت عليه قلوبها من هداية.

إنَّ أمّتي التي بنيتها لم تكن بدعًا من هذه الأمم، ولا نموذجًا مختلفًا عنها، فحينما بدأت تنحو -في علاقتها بي وتمسُّكها بما نزلتُ به- منحى مَنْ سبقها، فنسيت حظًّا مما جاء بي وذكرها به اختلفت قلوبها، ودبّ النزاع والشقاق بينها، وبدلًا من أن تحتكم إليَّ، وتعود إلى رحابي وتسائلني عما أصابها، وتهتدي بي للخروج من محنها، أعرضت عني وتحاكمت إلى أعرافها وتقاليدها، وبدأت تنظر إليّ على أنّني مرجعيّة، لا لإعادة بنائها ولا لحسم الخلاف بين فصائلها، بل مرجعيّة لنصرة كل منها على الآخر، فصاروا يأخذون من آياتي مقتطفات ومختارات يخرجونها عن سياقها، متجاهلين أنَّني قد حذّرت من اتخاذي عضين أو أعضاء تقطّع ليستشهدوا بها على ما يريدون، ويستنصر بها كل فريق على مخالفيه، فحوَّلوا آياتي إلى أجزاء وأعضاء ينتصر كل منهم بما يقتطعه لرأيه أو مذهبه أو مقولته. ولما لم يجدوا فيَّ ما يُلبّي رغباتهم افتعلوا لأنفسهم مناهج واشتقوا لأنفسهم طرقًا لتأويل وتفسير وحمل معانيَّ على المحامل التي يريدونها، فلم يعودوا يتلونني حق التلاوة، ولا

يرتلونني ترتيلًا، ولا يأخذون بهدي مَنْ أُنزلت على قلبه في قراءتي وتأويل آياتي في الواقع وتفعيلها، وأمعنوا في إعراضهم عني وبغيهم عليّ بأن اتهموني -وأنا هاديهم- بأنّني «حمّال أوجه» لا أحسم خلافًا، بل أدل على الشيء ونقيضه، ويمكن أن أدل للشيء وضدِّه، ويمكن أن أدل على معان مشكلة أو مبهمة أو متشابهة لا يستطيعون الاهتداء بها، وقد علموا أنَّني من كل عيوب كلامهم بريء. وزعموا أنَّ فيَّ الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه والمجمل والمبيَّن، وأنّني لست تبيانًا لكل شيء، بل إنَّ هناك أشياء لا أبيِّنها، فآياتي محدودة العدد، ووقائع حياتهم لا تُحصى ولا تُعدّ؛ ولذلك فإنَّني -على حد زعمهم- محتاج لغيري مما يصطنعون لأنفسهم من أدلة ومصادر، وأنَّ هناك مصادر أخرى غيري لا بد أن يلجأوا إليها، وتعسَّفوا في حمل بعض آياتي على معان لتشهد لما ذهبوا إليه من حجِّيَّة تلك المصادر والمراجع الكثيرة التي بلغوا فيها ما شاؤوا، وزعموا أنَّني دللتهم عليها لأسدّ نقصًا لم أعالجه، وثغورًا لم أقف عليها، وزيَّن لهم الشيطان أعمالهم، وقادهم إلى متابعة أسلاف لهم في سلوك سبيل هذا الضلال؛ أولئك الذين حُمّلوا التوراة ثم لم يحملوها فكانوا كمثل الحمار يحمل أسفارًا. فهؤلاء حُمّلوا القرآن ثم لم يحملوه فصاروا كمثل الحمار يحمل أسفارًا: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (الجمعة:٥).

القرآن والعقل والنفس:

لقد علَّمتهم أنّ الإنسان إنسان بعقله ونفسه وإيمانه، وأنَّه إذا أهمل عقله وأذلّ نفسه، وعطّل فكره، وتجاوز الأسباب وأهمل المسبّبات، ولم يعتبر بالمؤثّرات، ولم يلتفت للعواقب والمآلات، ولم يقدّر أفعاله مقاديرها؛ فإنّه لن يكون قادرًا على القيام بمهام الاستخلاف: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (الأعراف:١٧٩)، ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ (الأنفال:٢٢)، وبيَّنت بأجلى بيان أنّي الهادي لعقل الإنسان والمرشِّد لمسيرته، وأنّ عليه أن

يُعمل عقله ويسترشد به وبي في معالجة ما يعترضه؛ ليميز بي وبه الحق من الباطل والشر من الخير، ويستقيم على الطريقة، فلا يذل ولا يخزى، وأنّ النّفس عليه أن ينهاها عن الهوى، فإن هو فعل وتحوّلت نفسه إلى نفس مطمئنَّة في جانب، ونفس لوّامة في جانب آخر فستكون مساعدًا كبيرًا في إنشاء الإخلاق الكريمة والأوصاف العقليَّة المستقيمة. واستقامة النّفس وإعمال العقل حينما يرتبطان بي فسوف يكونان من جندي في التأليف بين القلوب وإزالة أسباب الاختلاف، وتحديد المقاصد والأهداف، والتعاون على البرّ والتقوى واحترام الآخرين وقبول مبدأ المساواة بهم ومعهم، ويحال -آنذاك- بين أمّتي وبين الفساد بأنواعه، وفي مقدمة ذلك فساد الأخلاق وتضارب القلوب؛ لأنّني سأجد -آنذاك- من العقل والنّفس جنودًا تساعدني على غرس الأخلاق الفاضلة، وجعل الإنسان يسلك سبيل الحق والعدل والتوحيد والتزكية والعمران، وتجعل النّفس قادرة على معرفة ما لها وما عليها والوقوف عند ذلك.

إنّ الأمَّة -التي بنيتها- ما هبطت عن جليل مرتبتها، ورفيع منزلتها، ولا استولى الفقر والفاقة على بلادها، وما استذلها أعداؤها، ولا تطرَّق الفساد إلى نفوس أبنائها إلا بعد أن ابتعدوا عنّي ولم يعتصموا بي، ولم يستمسكوا بآياتي، فلم يعودوا قادرين على تدبير أمورهم تدبيرًا حسنًا، ولا اتّقاء شرور أفعالهم، وطرأ على عقولهم السبات، ووقفت أفكارهم عن العمل في إصلاح شؤونهم، وكلّت بصائرهم، فلم تستطع إدراك النوازل التي أحاطت بهم، وسقطوا في أهوائهم متخبطين تخبّط الذي يتخبطه الشيطان من المسّ، يسيرون خلف كل ناعق، يتعلَّقون بالظنون والأوهام، لا يشعرون بالمصائب إلا بعد أن يكتووا بنيرانها، وسرعان ما ينسونها بمجرد أن تندمل جراحها، لا يدركون مآل الأمور، ولا يعرفون كيف يراجعون أنفسهم أو يتداركون ما فاتهم؛ ولذلك قبلوا الذل وألفوا الصغار واعتادوا الهوان وانقادوا للعبوديّة لأمثالهم من البشر، وتخلّوا عن عقولهم، وأسلموا للشيطان قيادهم وهو عدوهم، وسيطرت القسوة على قلوبهم، وفشي بينهم الشقاق والنفاق، وتلبّسوا بالغدر والخيانة، واعتادوا الحسد والنميمة والغيبة والبغي والقذف، وجاهروا بالوقاحة والعنف والشراسة، واتسموا بالجبن، وأخلدوا إلى الأرض، وانهمكوا في الشهوات، وتجاهلوا الصلوات، وخاضوا باللذّات، وتخلّقوا بالأخلاق البهيميَّة، مرتاحين

للفشل والكسل والجبن والبخل، يأكل قويّهم ضعيفهم، ويستعبد عزيزهم ذليلهم، يختانون أنفسهم، ويظلمون المستضعفين منهم، ويسرقون أموال ضعفائهم، وينقضون عهودهم، ويسعون في خراب بلادهم، يمنحون أعداءهم ديارهم ويُحكّمونهم في رقابهم ويستعدونهم على إخوانهم، لا يحمون ذمارًا ولا يخشون عارًا، متعالمهم جاهل، وقادتهم وقضاتهم ظالمون، ليس لهم هاد بعدي يرشدهم إلى سبيل النجاة، ولا زاجر بعد أن تنادوا بينهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ (فصلت:٢٦) ليكف أذاهم عن سواهم، ولا همّة عالية شريفة وأنوف حميّة ليكفوا أطماع الطامعين عن أنفسهم وديارهم وأموالهم وأعراضهم. لقد نسوا العزّة التي خصصتهم بها وجعلتها لهم شعارًا ودثارًا، فصاروا عرضة للهلاك إلّا أن يثوبوا إلى رشدهم ويتوبوا إلى بارئهم ويعودوا إليَّ قانتين مخبتين: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلنَآ إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ*فَلَوْلا إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ*فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ*فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام:٤٢-٤٥)، لقد تجاهلوا النذر وغفلوا عن المواعظ، ولم يتدبروا ما أنذرهم به من آيات، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ (الأنعام:٦٥)، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الأنفال:٢٥)، لقد فرقوا دينهم، وجعلوا آياتي أعضاء مقطعة: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ (الحجر:٩١)، لقد تجاهلوا كل ما قصصته عليهم من قصص الأمم السابقة، ولم يستفيدوا من عبرها ودروسها، لقد أخبرهم بسنن الله، ومنها: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ*ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ آبَاءنَا الضَّرَّاء وَالسَّرَّاء فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ*وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ*أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ*أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ*أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ

مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ*أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ*تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللّهُ عَلَىَ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ*وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ (الأعراف:٩٤-١٠٢).

*** *** *** *** ***

قلتُ له: أيّها القرآن، لقد وفيت وشفيت وكفيت في تفصيل وتوصيف الحالة الراهنة لأمّتك وما بلغته، ولا شك أنّها حالة مزرية مؤسفة، وقد أهلك الله -تعالى- أممًا كثيرة قبلنا بارتكاب أقل من ربع ما ارتكبته هذه الأمّة من جرائم وموبقات وانحرافات. ولكن الله -عزّ وجل- الذي فضّلك بعلمه عاملنا بحلمه وفضله لا بحكمه وعدله؛ ولذلك لم يهلك أمتنا كما أهلك مَنْ سبقنا، وحفظها من عذاب الاستئصال، ونحن موقنون أنّ ذلك إنّما حدث لأنّك مازلت فينا، وحين استعجل أسلافنا رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- بالعذاب سخرية منهم به واستهزاءً بك جاء فيك قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الأنفال:٣٣)، فإذا انتقل رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- إلى الرفيق الأعلى فقد استخلفك فينا محجة بيضاء، تقوم فينا مقامه، وتحفظ فينا رسالات النبيّين وكلمات رب العالمين، فلن يعذبنا عذاب استئصال وأنت فينا، وما زال فينا بعض أهلك الذين يأتونك مستغفرين: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ (النساء:٦٤)، لكنّنا نطمع بكرمك -وأنت الكريم- بعد أن وصفت الحالة بمنتهى الدقة: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (فاطر:١٤) أن تدلنا على كيفيّة إعادة البناء، وترسم لنا منهجًا عمليـــًّا وخارطة لذلك، وإنَّنا لعلى ثقة أنّ منهجك هو المنهج الوحيد -لا منهج سواه- يستطيع أن يعيد بناء هذه الأمَّة ويحيي مواتها، ويمنحها الخيريَّة والوسطيَّة والشهادة على الناس كما فعلت ذلك من قبل، وكلنا لك آذان صاغية.

سبل إعادة الأمّة:

وبدأ القرآن المجيد إجابته، فقال: بعد أن تستحضروا ما ذكرته لكم آنفًا، خذوا بهذا الذي أقوله لكم:

أولًا: إنَّ أول ما تفتقرون إليه هو أن تعيدوا في قلوبكم وضمائركم **بناء «التوحيد» الخالص** الذي جئتكم به وعلّمه رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلَّم- لأسلافكم...

قلنا له: التوحيد؟ التوحيد؟!

قال: نعم التوحيد.

قلنا:كيف ونحن موحدون؟!

قال: هذا صحيح، لكنَّكم مزجتم هذا التوحيد بكثير من الشوائب، بحيث صار أكثركم ممن ينطبق عليه قول الله في إحدى آياتي: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ (يوسف:١٠٦)، فلو وحَّدتم الله -تعالى- حق التوحيد، وتحررتم من سائر أنواع الشرك لما ظهر فيكم مستبدٌّ، ولما ساد شعوبكم متفرّد، ولا استبد بشؤونكم عاص أو منحرف أو مفسد، ولا مكّنتم من رقابكم وأموالكم السفهاء، ولا ظهر فيكم الانحراف عنّي وتناسي منهجي ونبذ شريعتي وتجاهل الأخلاق التي دعوتكم إليها وتبنّي أضدادها، والتنكر لبعضكم والتودّد لأعدائكم، ولا كثر فيكم الخونة والزناة والمفسدون والموالون لأعداء الله وأعدائي، ولا ارتفع فيكم أهل المعصية وانخفض فيكم أهل الطاعة، ولا قطَّعتم أرحامكم ولا نبذتموني وراءكم ظهريًّا!

إنَّ كل هذه الظواهر -التي ذكرتُ بعضها، وهناك كثير غيرها- ما كانت لتظهر فيكم لو كنتم موحّدين، وما كانت لتنتشر لو كنتم مؤمنين خالصي الإيمان! يدخل أحدكم المسجد ليصلي فريضة من الفرائض فينقرها نقرًا بقلب لاه وعقل غافل ساه، ثم يخرج إلى السوق ليتعامل فيه كمن لم يعرف لنفسه ربًّا ولا خالقًا ولا إلهًا إلا المال والنّفس والهوى! وقد يذهب أحدكم إلى موقع حكمه فيحكم بغير ما أنزل الله وهو يستحلف النّاس عليَّ، فلا يزيده ذلك إلا بعدًا عنّي وإعراضًا عن شريعتي، ويجلس أحدكم في سدة

الحكم أو القضاء أو الشورى فيفعل ما بدا له وما يمليه عليه الشيطان، وهو واثق أنّه قد ضلّ سعيه في الحياة الدنيا وأعرض عنّي وتجاهلني، ومع ذلك فقد يرفع عقيرته ويقول بأنّه قد أحسن صنعًا.

لقد ذكّركم الله -سبحانه وتعالى- وحذّركم بي من كثير من الانحرافات التي وقعتم فيها فما زادكم ذلك إلا إعراضًا، تفرّقت كلمتكم فلم تثوبوا ولم ترجعوا، وتسابتم وتقاتلتم وأنتم تعلمون حرمة أعراضكم وأنفسكم وأموالكم عليكم وعلى سواكم، لقد نزلتم عن خصال الجاهليّة فاستحللتم البلد الحرام، وهتكتم حرمات الأشهر الحرم: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الأنعام:١٥١)، ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ (الفرقان:٦٨)، ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ*الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ*وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ*وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ*وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ*إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ*فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ (المؤمنون:١-٧)، ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا*وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا*إِنَّهَا سَاءتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا*وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا*وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ (الفرقان:٦٣-٦٨).

لقد ركبكم أعدائكم الصليبيّون لمئتي عام فما رجع منكم إلا القليل، وبمجرد أن كشف الله عنكم الغمّة: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ*قُلِ اللّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام:٦٣-٦٤) ما لبثتم أن عدتم إلى ما كنتم عليه، وجاءكم آخرون أولو بأس شديد، وثنيُّون، فجاسوا خلال الديار، ورأيتم منهم العجائب فلم تعلموا أنَّ ذلك لم يحدث إلا بعد أن أعرضتم عنّي ونسيتم ربكم وغفلتم عن هديي وتجاهلتم رسالتكم، وأنَّ سنّة الله في أمثالكم أن لا تغلبوا من قلة ولا يُنتصر عليكم من ضعف، فأنتم -إن

أخلصتم- انعكاس ليد الله -سبحانه وتعالى- في الأرض، يضرب الله بكم أعداءه حين تخلصون له الدين، لكنَّكم حين تشبهون أعداءه فإنَّ النصر والهزيمة -آنذاك- تعود إلى القوى الماديَّة، حيث يخلي الله بينكم وبينها، وقد يسلط عليكم مَنْ هو أشر منكم وأكثر انحرافًا؛ لأنَّكم -بانفصالكم عنّي- تكونون قد انفصلتم عن مصدر قوتكم ومنبع طاقتكم، وأصبحتم مثل غيركم، إن زادت قوته على قوتكم انتصر عليكم بتلك السنن العاديَّة، فالله لا ينصركم ولا يترل ملائكته لتبشّركم وتقوي نفوسكم وتشد أزركم وتُثبّت أقدامكم وتخذل أعداءكم، فتلك أمور ارتبطت بالتوحيد الخالص لله -سبحانه وتعالى- واتصلت اتصالًا كاملًا باتّباعي فيما نزلت به، فالتوحيد الذي جئت به وعلمكم رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلَّم- بآياتي قواعده لا أجده فيكم اليوم كعهدي به في ذلك الجيل المبارك الذي ربّاه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلَّم، فعودوا إليَّ مرة أخرى؛ لتتعلموا منّي «التوحيد الخالص»، فلا تُشركوا بالله أمواتًا ولا أحياءً، ولا توجِّهوا حمدكم وشكركم وعبادتكم وتوسّلكم ودعاءكم واستعانتكم إلا إلى الله -تعالى- فالتوحيد لا بد أن يكون نقيًّا خالصًا.

ثانيًا: تزكية أنفسكم وتطهير قلوبكم وتنقية أدمغتكم، وقد بيَّنت لكم ذلك كلّه، وقدّمت لكم دليلًا واضحًا بيّنًا جليًّا لكل ما ينبغي لكم أن تفعلوه، وما يجب عليكم أن تجتنبوه لتتحقق فيكم التزكية، وبيَّنت لكم أنَّ الفلاح -سواء أكان فلاح الفرد أم الأسرة أم المجتمع أم الأمَّة أم الدولة أم الحكومة- لا يمكن أن يتحقق دون التزكية، وأنتم اليوم في كل وادٍ من وديان المنكر والخبائث تهيمون، تُسَمّون الخيانة ذكاءً، والسرقات والرشى والسحت وأكل أموال الناس بالباطل مهارة، والتحلّل وكل ما يقرب إلى الزنا تسمونه فنًّا، والزنا ذاته -مع تشديدي في منعكم منه وتحذيري الشديد لكم من الوقوع فيه وبياني المتستفيض بأنّه الفاحشة التي تستجلب المقت، وتدمر المجتمعات، وتفكك الأسر والعلاقات- يُسميه بعضكم حبًّا، ويُسميه بعضكم علاقة حرّة، ويعتبره الكثيرون منكم حقًّا لأنفسهم ومتعة يسعون إليها، وقد ينفقون في سبيلها الملايين مما جمعوه من السحت والمال الحرام، وينسون الفقراء والمساكين والأرامل والأيتام والغارمين وذوي الحاجات والجياع والمرضى وسائر الفئات التي تشتد حاجتها إلى ذلك المال وتزداد.

وقد ذكّرتكم ببني إسرائيل وأمم سبقتهم، وما آل حالهم إليه حين أعرضوا عني وتجاهلوا هدايتي: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ*وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ (المائدة:١٣-١٤)، فما زادكم ذلك -كلّه- إلا استغراقًا في المنكر واستمراءً وامتدادًا في الباطل، وإقبالًا على الشهوات!

لقد استبحتم الدم الحرام في الشهر الحرام لما يستحق وما لا يستحق من أسباب تفتعلونها لإذكاء الصراع بينكم، فاستهنتم بالأرواح، وامتهنتم النساء، واستكبرتم على الضعفاء، وحرمتم عباد الله حقوقهم، وبالغتم في الكذب عليهم وتضليلهم. فكيف يستقيم لكم ذلك وقد أخبركم الله من خلالي بسنته في الأمم والأقوام التي تظهر فيها هذه الجرائم والمخالفات: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (يونس:٨١)، ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (غافر:٧٨). لقد وردت فيَّ قصص كفيلة بتذكيركم بالتزكية وغفلتم عنها، فذلك قارون مثل للمغترّين بالمال، وتلك القرية التي كانت حاضرة البحر وما حدث لها، وقرى قوم لوط، وسائر القرى الظالم أهلها، فهل أغنت عن أولئك الهلكى مساكنهم التي لم تسكن من بعدهم؟ هل أغنت عنهم الجنّات والعيون والزروع والملذّات والجياد الفارهات والمراكب التي كانوا يتيهون فخرًا بها؟! لم يُغنِ عنهم شيء لما ظلموا أنفسهم وتخلوا عن التزكية وأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات؛ هؤلاء سيلقون الفشل في الدنيا وسيلقون الغيَّ في الآخرة، تلك سنّة الله في أمثالهم وسنّته في نظائرهم.

إنّ بعضكم يجلس أحيانًا كالمعاتب لي، فكأنّه يعاتبني كيف نُخذل ونحن مسلمون؟ وكيف نُخذل ونحن مؤمنون؟ ولو عقل هؤلاء لأدركوا أنّهم ما خُذلوا وهم مؤمنون، ولم يذلوا وهم لله عابدون، ولم تتفرق كلمتهم وهم بحبل الله مستمسكون، بل إنَّهم لم يُخذلوا أو يذلوا، ولم تُفرّق كلمتهم إلا بعد أن تخلّوا عن ذلك كلّه، ولو أنّهم آمنوا الإيمان الخالص وعلم الله منهم التقوى بعد أن تزكوا لكان معهم، فـــ: ﴿إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ

وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ (النحل:١٢٨) يُسدّد خطاهم ويُرشِّد مسيرتهم بعد أن آمنوا به ووحدوه وتزكوا وتطهروا لوجهه وطمعًا في رضوانه.

ثالثًا: إنّكم لا بد أن تقوموا بمهمّة «العمران»، فالبشر ما استُخلفوا في هذه الأرض إلا ليعمروها، ألا ترون أنّ أمتكم اليوم التي تنسب نفسها إليَّ زورًا وظلمًا تخلّت -منذ فترة ليست بقصيرة- تمامًا عن الدعوة إليَّ، فلم تعد في موقعها في العالم «أمَّة دعوة وإجابة» تشعر بمسؤوليّتها عن أمم الأرض كلّها التي اجتالتها الشياطين؛ لتستعيدها وتردها إلى الإجابة لله ولي وللرسول؛ لتصبح البشريّة كلّها «أمّة إجابة»، وتصبح الدعوة دعوة إلى الاستمرار في ذلك، والمحافظة عليه، وعدم الانحراف عن جادته؟! لقد تركتم الدعوة وأهملتم الرسالة وتخلّيتم في أنفسكم وديياركم عن الاستجابة إلّا في مستوى ضحل ضئيل، وانشغلتم بالمال والجاه والسلطان والشهوات، وسفكتم دماءكم، واستحللتم أعراضكم وأموالكم، ورجعتم -وأنا بين ظهرانيكم- كما كنتم في جاهليّتكم، يضرب بعضكم رقاب بعض، وينتهك بعضكم حرمات بعض، ويستلب بعضكم أموال بعض، فمتى تعمرون الأرض؟! ومتى تعلون كلمة الله فيها؟! ومتى تحررون أبناءها وأنتم قد أعدتم أنفسكم إلى نير العبوديّة وربقة الذل؟! ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ*ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ*أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (البقرة:٨٤-٨٦).

لقد بلغ بكم هجري ونسياني أن صرتم في حاجة إلى ترشيد وتوجيه ممّن لم يعرفوني ولم يطّلعوا على هدايتي ولم يستضيئوا بأنواري. صار هؤلاء هم الذين يذكّرونكم ببعض ما جئتكم به من حقوق بعضكم على بعض، وحقوقكم على نسائكم، وحقوق نسائكم عليكم، وكيفيَّة إصلاح أحوالكم، فأنَّى لكم وأنتم في هذه الأحوال أن تعمروا الأرض أو

تصلحوها؟! ولن يعمر أرضًا المفسد فيها، ولن يصلح منها شيئًا مَنْ تلبّس بالضلال والانحراف والفساد. فإذا أدركتم أنَّ عليكم أن تتوبوا وتثوبوا إلى رشدكم، وقررتم بعزيمة صادقة أن تفعلوا هذا، وأجمعتم أمركم على الإيمان الخالص والتوحيد الخالص والتزكية والنقاء الكامل وحمل الأمانة والقيام بمهام الاستخلاف والنجاح في اختبار الابتلاء... آنذاك سوف تجدون صراطي المستقيم، وتجدون طريق الهدى فيّ سالكًا مفتوحًا قادرًا على إيصالكم إلى ما تريدون، وستجدون أنَّكم قادرون على تحقيق غاياتي وأهدافي في إعطاء كل ذي حق حقه، والتسوية بين الناس، وإقامة العدل فيهم، وأداء الأمانات إلى أهلها، بل -آنذاك- ستصبحون مَعْلمًا بارزًا على الأرض، ومنارة يهتدي بكم كل أهلها، ويقتدي بكم كل ساكنيها، وتشرق الأرض بنور ربها، وأقودكم وتقودون كل مَنْ عداكم في قافلة تسبيح موحِّدة، يُسبّح لله فيها ما في السموات وما في الأرض: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء:٤٤)، سوف يُسبّح بإيديكم الشجر والحجر، الشجر المخضر والحجر المبنيّ، وستكونون أمَّة الإجابة، الشاهدة على الناس، الخيّرة، الوسط، القطب، والقدوة، وسيندحر الشيطان ويتراجع الفساد وترتفع بأيديكم راية الرحمن وأنا معكم والله -تبارك وتعالى- ناصركم: ﴿إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ (النحل:١٢٨)، وستستردون عزتكم وكرامتكم، وتعيدون بناء أمتكم، وتوحدون كلمتكم، وتحققون أهدافكم.

رابعًا: تحقيق مفهوم (الأمّة) فردًا وجماعة؛ فلقد علّمتكم أنَّ «العمران» و«العمارة» لا ينفصلان عن العبادة، بل هما جزء منها، ومادام الأمر كذلك فإنَّ استصحاب «التوحيد والتزكية والعمران» في إعادة بناء الأمّة يصبح أمرًا لازمًا وضروريًّا، وتصبح الأمّة -بالتوحيد- ذات عقيدة كاملة ورؤية كليّة منبثقة عنها، وبالتزكية تصبح ذات دعوة، فتلك مهمتها، ورسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- الذي علّمكم آياتي وزكّاكم بها غرس فيكم -قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى- مبدأ وفكرة «**الأمَّة**»، وأرسى أسسها، وأقام دعائمها، وبيّن لكم معناها ومفهومها وشروطها ودورها وضرورتها، فهو لم يخلف إمامة أو دولة أو سلطنة أو مملكة أو حكومة، وإن توهم الكثيرون منكم ذلك، لكنَّه ترك فيكم معي «أمَّة» انبثقت عنها المؤسَّسات والممالك والمدارس والحكومات والدول، فليست

الدولة هي المدار الذي تدور الأمَّة حوله وعليه انطلاقًا وبناءً وتطورًا وامتدادًا وضمورًا وعلوًّا وتراجعًا؛ لأنَّ «الأمَّة» -كما أكدت لكم آياتي- تدور مع العقيدة مع التوحيد النقيّ الخالص الذي لا ينبغي أن تشوبه أيُّ شائبة من شرك أو شك أو نفاق، والعقيدة هي منطلق بقاء «الأمَّة»، فالأمَّة وعاء ومحضن للدولة والدعوة، إذا وحدت «الأمَّة» فإنّها تكون قادرة على إيجاد مؤسّساتها وبناء قواعد نظامها، فالأمّة توجد الدولة، والدولة لا تصنع أمَّة من عدم.

إنَّ الدولة ما هي إلا متمّم ومكمّل لمقومات الأمَّة والبناء العمرانيّ لها، فالدولة أداة للذود عن الأمَّة والدفاع عنها وتمثيلها وصيانة مصالحها ونظمها، فالدولة لا تنشئ الأمَّة عندي، ولا يمكن أن تكون بديلًا عنها، بل الأمَّة هي التي تنشئ الدولة، وأخبرتكم وعلّمكم خاتم النبيّين أنَّه مادمت موجودًا أقوم بدور المحجّة البيضاء في عقولكم وقلوبكم ومجتمعكم وأيَّة مؤسسة تنشئونها -ومنها الدولة- فإنَّ الأمَّة باقية بخصائصها التي تفتقدونها اليوم من خيريَّة ووسطيَّة وشهود وقوة ومَنعة؛ لأنَّني اتخذت من الأمَّة الوعاء البشريّ الذي تتجلى آياتي فيه بالقوة أو بالفعل؛ ولذلك فإنّ الأمَّة التي اتخذتها وعاءً بشريًّا أحيانًا تتمثّل في فرد واحد مثل إبراهيم: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل:١٢٠). وأحيانًا تغيّر الأمَّة الواقع وتبني مؤسَّساتٍ ونظمًا وتوجد علاقات منبثقة عنّي تتجلَّى فيها، وحين تختل العقائد وتضطرب الرؤية الكليّة، ويطلق الناس لأهوائهم العنان ليعتقدوا ما شاؤوا ويرفضوا ما أرادوا رفضه ينهار البناء.

إنَّ الأمّة ولّدتها بآياتي، وبدأ بناءها رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- بشهادة «أنّ لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله»، وحين استقر التوحيد والمعتقد في ضمائر الأفراد وقلوبهم، وعاهدوا الله على التوحيد ونبذ الشرك بكل أنواعه، والإقرار بأنَّ محمدًا -صلّى الله عليه وآله وسلم- وحده الرسول الذي حملني إليهم، نقلت المسؤوليّة الفرديّة إلى إطار الجماعة، وصرتم تقولون بضمير الجمع: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة:٥)، لتدركوا أنَّ هدايتي لا يحملها الأفراد بعد رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلَّم- ولكنّكم تحملونها مجتمعين وباعتباركم أمَّة، وبالتالي كان عليكم أن يكون هديي وهدايتي وسيلتكم لتنشئة

أفرادكم وأسركم وبناء هُوِيَّتكم، وأعطيتكم كل مفاتيح التنشئة الذاتَّية لأفرادكم، والتجدُّد الدوريّ لجماعتكم وأمتكم، وأكدت عليكم أنَّ مفاتيح ذلك -كلَّه- تكمن في عقيدتكم السهلة اليسيرة البسيطة المحدودة، وبذلك أكون العقيدة الأساس الذي يقوم بناء الأمَّة عليها، وأكون المدرسة الجامعة لكم جميعًا، والمرجعيَّة التامّة، ويكون رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- هو مصدر الأسوة والقدوة.

إنّ تفعيل آياتي في واقعكم، وما جئت به وعلّمتكم إياه منذ البداية من قيم التوحيد والتزكية والعمران، وما ينبثق عنها من عدالة وحريّة ومساواة تكون هي المعايير التي أحكم بها على خيريَّتكم ووسطيَّتكم وشهودكم الحضاريّ، وبالتالي تصبح مكوّنات الأمَّة التي تحملني مثل إبراهيم، فإذا قال إبراهيم: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ*لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام:١٦٢-١٦٣) فذلك يعني أنَّ الأمة حينما تمرّ بلحظات تاريخيَّة تحدث فيها فجوة بين كيانها وبيني، فإنَّني أتوقع من أفراد منها مِثل إبراهيم، يستنُّون بسنته، ويهتدون بهديه أن يقوموا بعمليّة إعادة الارتباط بيني وبينها، وسدّ الفجوة التي وقعت، وهؤلاء الأفراد وعد الله -تبارك وتعالى- أن يجعل من إرادتهم -إذا توافر فيهم ما توافر في إبراهيم- أمرًا مساويًا لإرادة الجماعة، تبعث في أولئك الأفراد قيمي، وتتمثّل فيهم دعائمي وقواعدي، فقد يكون فيهم مثل أبي بكر الذي استطاع أن يحفظ وحدة الأمَّة التي بناها رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلَّم- ويدعم كيانها، وعمر بن عبد العزيز الذي عمل على تعديل وتقويم مسار الدولة، وكأن كلًّا منهما كان أمّة مجتمعة فيما قام به، وكذلك صلاح الدين الذي انتشل الأمَّة من هزيمتها وذلّها وهوانها، ومثلهم عشرات المصلحين الذين سدّوا مسدّ الأمَّة بقطع النظر عمن نجح في ذلك وحققه، أو تراجع دون شيء منه، وبذلك أعطيتكم سبيلًا يحفظ الأمَّة بحمل «أمانة الدعوة والرسالة»، يجدّد لها حيويَّتها، ويُعيد تنظيم قنوات التنشئة فيها، وتعزز الدولة عن قرب أو عن بعد ذلك! ومادمت موجودًا بينكم، والقيم التي وجهتكم إليها حاضرة في مجتمعاتكم، فإنَّ «التوحيد» قادر على المحافظة لكم على المنظومة القيميّة، والوجهة والقبلة، والوشائج العقليّة والفكريّة، والمنظومة الحياتيّة التي تجمع وتصل بين عناصر كيان الأمَّة.

ملاحظات هامة على إعادة بناء الأمّة:

لقد قدّمتُ لكم من المفاهيم والعبر والدروس وقصص الأمم السالفة ما يمكّنكم من تجديد بناء المدركات والمفاهيم، وردم أيَّة فجوة تقوم بين وجدانكم وبين كتاب ربكم، بحيث يمكنكم اكتشاف المساحات العقليّة والنفسيّة التي غابت أو غُيّبت كي تستدركوها، وبذلك رسمتُ لكم سبيل التجدُّد في أيّ عصر يتقادم فيه العهد وتنفصم العرى؛ فمعرفتكم بما اشتملت عليه آياتي من خصائص تكوينيَّة للأمَّة ترسم لكم سبيل التجدُّد عند إحاطة عوامل التقادم والبِلى بكيان الأمَّة، لقد أكدتُ عليكم أنَّ أمّتكم هذه أمَّة واحدة صاحبة رسالة كونيّة خالدة، لا تقوم على عرف أو لون أو إقليم جغرافيّ لكنّها تقوم على رسالة ودعوة تحمل طاقات إشعاع، تستطيع أن تستوعب خصوصيّات الأمم والشعوب والألوان دون أن تقضي عليها أو تزيل ملامحها، ولكنّها في الوقت نفسه تجمع وتوحّد، وتعمل على المحافظة على التعدّد، كما بيَّنت لكم كيف تجمعون في أمتكم بين شروط التمكين ومعايير التقويم، أو بين الفاعليَّة والمعياريَّة، فإذا أردتم إعادة بناء الأمَّة فعليكم إعادة قراءتي وتلاوتي حق التلاوة؛ لإعادة بناء مدركاتكم ونظمكم وبناء مؤسّساتكم بشكل يؤمّن لكم الوقوف على ثغرة الدعوة، ويُعيدكم إلى حالة الحضور التي نقلتكم إليها فيما مضى؛ لذلك لا بد من ملاحظة عدة أمور:

أولًا: لقد أدّى ابتعادكم عن مفهوم الأمَّة -من كونها وظيفة إلهيّة ذات منطلقات دينيَّة ورابطة عقديَّة إلى مجرد رباط عاطفيّ، تتذكرونه وتنسونه، لا وزن له ولا فعل ولا تأثير على مجريات الأحداث- إلى إفراغ الإسلام الذي جئتكم به من مضمونه، وفُصلت الروح عن الجسد، ولا يمكن -والحالة هذه- أن تعيدوا بناء الأمَّة إلا إذا استعدتم هذه المفاهيم وربطتم عليها قلوبكم، لقد مزّقتم أمَّتكم بالفواصل الإقليميَّة والكيانات السياسيَّة والحدود والنظم الإقليميَّة التي غرسها فيكم أعداؤكم، ولكنّكم تقبّلتموها لبعدكم عنّي، فتشعّبت ولاءاتكم الفكريّة والعقديّة في ظل مَنْ فرضوا أنفسهم عليكم باعتبارهم نخبًا وصفوة اغتربت عنكم واغتربت عنّي: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ (التوبة:٥٦)، ولقد تبنّت تلك الأصوات أنساقًا غريبة عنّي وعنكم؛

فتساقطت عليكم المشكلات تساقط المطر، ووجد كل قطر أو إقليم نفسه معزولًا عن محيطه ومجاله وأمَّته، لا يجلب نفعًا لذاته ولا لغيره ولا يدفع ضررًا، والأمثلة تصدّع عقولكم وآذانكم وقلوبكم صباح مساء ولا تعتبرون. وحين حاولتم العودة إليَّ كانت عودة محمَّلة بكثير من الخلط الذي لم يسمح لكم بأن تستنيروا بي وتهتدوا بهديي في إطار كل تلك الكيانات القطريَّة والدول القوميَّة والكيانات التنظيميَّة في مستويات محليّة وإقليميَّة وعالميَّة، ومع أنَّ آياتي تقرؤها إذاعاتكم عليكم، ويُردّدها إعلامكم بكل وسائله، لكنَّها لم تستطع حتى الآن أن تُوجِد فيكم -لغلظة القلوب وقسوة النفوس- رأيًا عامًّا مشتركًا يُعيد لكم شيئًا من الفاعليَّة، وربما سرتم معي بضع خطوات لكن ما تكادون حتى تشدّكم بعيدًا عنّي أفكاركم، ومصالحكم المتوهّمة، ومذاهبكم البعيدة عني، وطوائفكم ذات المفاهيم الضيّقة التي لم تستطع أن تدرك مقاصدي وأهدافي لتوجد الأمَّة التي تكون وعاءً لي.

لقد علَّمتكم كيف تبنون كيانًا جماعيّـًا يقوم تماسكه وتوحيده وأمنه واستقراره على عقيدة مصدرها ربانيّ إلهيٌّ، ومجالها منظور ممتد يصل بين الحياة الدنيا والآخرة، ويكيّف سائر أوجه وأنشطة الحياة الدنيا بمنظوره، وكيف تعلّمون بالعقيدة والعبادات والمقاصد العليا أجيالكم -أفرادًا وجماعات- أنَّ المؤمن بي المتَّبع لسبيلي منكم هو ذاته جماعة مؤمنة وهو نفسه يمثّل الجماعة الأمَّة: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات:١٠)، ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح:٢٩)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ*إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ (المائدة:٥٤-٥٥)، وحين عمل رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلَّم- على اتّباع آياتي وتفعيلها في

واقعه الذي عاشه علَّم الفرد كيف يكون أمَّة، وقال بتكافؤ دماء المؤمنين، وأنَّهم يسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على مَنْ سواهم[٨]؛ ليصبح الفرد -في انتمائه وولاءه وهُوِيّته، بالعبادات والعقيدة والانتماء، كيانًا وعملًا- فردًا أمَّة، لا ينفصل الإيمان عنده عن العمل، ولا العقيدة عن الحركة والبذل والإيثار والفداء، بل تصبح كلّها أجزاءً من طبيعته، ومظاهرًا وتجسيدًا لسلوكه، فالعقيدة التي جئتكم بها هي مصدر لتماسك الكيان الذاتيّ للفرد، ومصدر لتماسك الكيان الذاتيّ للجماعة، وبذلك يكون الفرد منكم بمثابة كيان كونيّ أخلاقيّ، لا يستطيع أن يعيش في عزلة، بل يعيش في جماعة وأمَّة، إن افتقدها سارع إلى العمل على إيجادها بكل الوسائل التي هديتكم إليها، فيصبح التوحيد والإيمان بوحدانيَّة الله طاقة توليد لحيويّتكم، ومفاعل تحرّك لكيانكم البشريّ، وطاقة إشعاع لهداية سواكم، يجلب إليكم الكيانات الأخرى، فيصبح الانتماء إلى كيان الأمَّة ليس عبئًا تتنصّلون منه كما تفعلون حاليًّا، فتحاربون وحدتكم، بل تصبح «الأمَّة» و«الهُوِيّة» و«الانتماء» مصدر كرامة وعزّة وتدعيم للهُويَّة، بحيث يصبح هذا الانتماء هو الحياة؛ لأنَّه مصدر العزة: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (المنافقون:٨)، وهو مصدر الحيويَّة والحياة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال:٢٤)، فهناك ارتباط وثيق أوجدتُموه وفصمتموه بين الحياة الحرّة الكريمة والإرادة الواعية للفرد وللجماعة، ويصبح تفعيل المقاصد والقيم والخصائص، وتحويلها من مدركات ومعلومات إلى حقائق في الواقع أمرًا تسعون كلّكم إليه؛ لأنَّ به تتحقق الحياة الطيّبة، وبه تتحقق النّجاة في الدار الآخرة، وعلى ذلك فإنَّكم إذا أردتم هدايتي في إعادة بناء الأمَّة فعليكم أن تحدثوا تغييرًا جذريًّا في تصوّراتكم ومدركاتكم ومؤسّساتكم التعليميَّة -والإعلاميَّة خاصّة- وسائر برامجها؛ لتوجدوا بدائل تستطيع أنْ تعلِّم أجيالكم مفهوم الأمَّة كما رسمتُه، وأنَّها كانت حقيقة تاريخيَّة اجتماعيَّة حقّقها أسلافكم، ولا بد لكم أن تُعيدوا بناءها في قلوبكم أفرادًا وأسرًا وشعوبًا، ثم في واقعكم.

[٨] وروى ابن ماجه من حديث ابن عباس عن النبي -صلى الله عليه وآله وسلّم- "المسلمون تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم يسعى بذمتهم أدناهم "الحديث أخرجه البخاري.

ثانيًا: إنَّ أمتكم تحمل خصائص ذاتيَّة منحتها إيَّاها، وأصولًا تركيبيّة ودافعيّة حيويّة لو تمسَّكتْ بها لأمَّنت لذاتها البقاء والإنماء، وإعادة بناء الأمَّة يقتضي إحياء تلك الخصائص والأصول، وإعادة بناء ما بلي منها.

ثالثًا: لا بد لكل مؤسّساتكم أن تعمل بجدّ واجتهاد على الكشف لكم عن كيفيَّة ربط الأصول التكوينيَّة لأمتَّكم بالعقيدة والعبادات والشعائر ونظم المعاملات، وجعلها منظومة متظافرة في إعادة البناء والحفظ لروح الأمَّة ولكيانها.

رابعًا: لا بد أن تتعلّموا أنَّ مقارفة الموبقات وممارسة المنكرات لا تُشكّل خيانة لله ولرسوله ولي ولما جاء بي فقط، بل تُشكّل هدْمًا للأمَّة ذاتها، فلا بد من العمل على تنقية أنفسكم وبيئتكم وكيانكم الحضاريّ الاجتماعيّ من كل ما نزلتُ به من محرَّمات وحذَّرت منه من مخالفات وموبقات، والالتزام بكل ما أمرت به.

خامسًا: لا بد لكم من استخلاص منهج تنشئة وتربية وتكوين للشخصيَّة من بين آياتي؛ لإعادة بناء الأمَّة بـــ«ـــالفرد الأمَّة» وبـــ«ـــالأسرة الأمَّة» تنشئة كاملة متكاملة، تنبثق عن الإيمان الذي جئتكم به، واستيعاب المقاصد والقيم التي أرسيت دعائمها فيكم، وجعل مفهوم الأمَّة حقيقة نفسيَّة وعقليَّة تعيش داخل شخصيَّة الفرد منكم، لا يستطيع أن يحيا حياة مستقرة ما لم يرها في الواقع الاجتماعيّ والتاريخيّ كحقيقة واقعة، وإعداد المؤسّسات الكفيلة بتحقيق ذلك كلّه، والله أعلم.

*** *** *** *** ***

السؤال الرابع

أيّها القرآن المجيد، ذكرت في كرائم آياتك كثيرًا من الخصائص الذاتيّة للأمّة المسلمة؛ منها «الخيريّة» و«الوسطيّة» و«الشهادة على الناس» وسواها، فهل يمكن أن يُعاد بناؤها دون أن تفقد شيئـــًا من تلك الخصائص؟

إجابة القرآن:

أسباب تراجع الأمّة:

انظروا في معتقداتكم اليوم بفصائلكم المختلفة؛ علمائكم وقضاتكم ودعاتكم وحكّامكم وأئمة الصلاة فيكم وعامّتكم، هل تجدون التوحيد الخالص والعقيدة السليمة مستقرَّين في هذه القلوب، أو تجدون التوحيد قد شابته الشوائب وفارقه الصفاء والنقاء، وتجدون العقيدة قد اختلطت بما يُنافيها أو يُضادها أو يُعارضها أو يوافقها بنوع موافقة؟! دعكم من هذه، أين هي مستلزمات تلك العقيدة وآثار ذلك الإيمان في معاملاتكم؛ بيعكم وشرائكم وإقراضكم وديونكم وزكاتكم وأخذكم وعطائكم، منظومة حياتكم كلها؟! هل تجدون للتوحيد وللعقيدة أثرًا في ذلك كله؟ أو أنّ ذلك -كلّه- قد حوّلتموه إلى ما تسمونه بمصالح ومنافع تجعلون شريعتي في أكثر الأحيان تابعة لها بالقهر وليّ أعناق آياتي والهداية التي جئت بها، وماذا عن العبادات التي يُفترض أن تكون خالصة لله -تعالى- لا تشوبها شائبة من شك أو شرك أو عبث أو اضطراب؟ لقد تلاعبتم بها وتصرّفتم فيها، وطوّعتموها لرغباتكم، حتى صار بعضها كأنَّه عبادة لكم وليس لله -سبحانه وتعالى- والأمثلة على ذلك كثيرة. لقد حوّلتم العبادة إلى عادة فلم تعد لها فاعليَّة، وخلطتموها بمظاهر شتّى لا علاقة للعبادة بها، تفاخرتم بزخرفة المساجد وتهاونتم بطهارة القلوب، تباريتم بالأشكال وتجاهلتم: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (الجن:١٨)، وها أنتم تُعلون في مساجدكم ما شئتم من الأسماء، والناظر في صلاتكم وجُمَعكم وأعيادكم وسائر ضروب عباداتكم لا يجد فيها المقاصد التي وضعها الله -تعالى- فيها، وأنزلها فيَّ، ألم أخبركم أنَّ الصلاة دون خشوع تفقد روحها، وأنَّ الزكاة دون تواضع

للفقراء وحب لهم وإخلاص في الرغبة بمواساتهم ومساعدتهم والوقوف إلى جانبهم باعتبارهم أخوة لكم في الأصل والغاية والدين، إن لم تفعلوا فإنَّها تتحول إلى مَنٍّ وعبء واستعلاء على ذلك الفقير، الذي كان يمكن أن تكونوا في موقعه ويكون هو في مواقعكم؟! ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَاللّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ*يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:٢٦٣-٢٦٤)، وما أنباء صيامكم وما تفعلونه في شهر رمضان من مخالفات ومنكرات تجعل الصيام شكلًا لا مضمون له؟! وكذلك الحال في حجّكم ونوافلكم وسائر منظومة العبادة التي جئتكم بها لتحقق فيكم التزكية والطهارة والإخبات لله -تبارك وتعالى- وتجعل من كل منكم فردًا بأمَّة! ولكنّها اليوم لم تعد تحقق شيئًا من ذلك، فلا غرابة إذا قست منكم القلوب التي لم تعرف الخشوع ولا الإخبات ولا القنوت، ومارست أعينكم وأيديكم وأرجلكم وسائر جوارحكم التي ستشهد عليكم بين يدي الله شتى المخالفات والمنكرات.

شروط إعادة بناء الأمّة:

إنّ الخصائص الذاتيّة لأمتكم قد قامت دعائمها الأولى علي يدي إبراهيم خليل الرحمن، فهو الذي اختاره الله -تبارك وتعالى- واصطفاه لهذا الدور -دور البناء الأوليّ للأمّة- وكوّنه وصنعه على عينه صناعة جعلته يصبح بمفرده كأنّه الأمَّة، في إشارة منّي إليكم بأنَّكم مطالبون أولًا بإيجاد «**الفرد الأمَّة**» -كما فعل إبراهيم- لتوجدوا الأمّة المطلوبة، ولقد بسطت لكم كيف قاد الله خطى إبراهيم؛ ليؤسّس في قلبه وعقله ووجدانه التوحيد الخالص والعقيدة السليمة، وحينما تتدبَّرون قصة إبراهيم تدبّرًا عميقًا تجدون دليل عمل لتنشئة الفرد الذي يصلح أن يكون نواة أو حجر أساس في بناء الأمَّة وفي تشكيل الملّة.

إذن فالشرط الأول لإعادة بناء الأمَّة واسترداد كيانها هو أن تعيدوا بناء الفرد الإبراهيميّ الذي يصلح أن يكون أمَّة، أعني الفرد القانت لله، الخاشع له، الأوَّاه، الحليم،

التوَّاب، الذي يترسّم خطى أبي الأنبياء، وينتمي إلى أمَّتهم، الشجاع الجريء الذي يتمرّد على الأصنام وعبّادها، ومنهم أبوه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا*إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا*يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا*يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا*يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا*قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا*قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ (مريم:٤١-٤٧).

إذا تمّت الخطوة السابقة، وأصبح الفرد معلّق القلب بالله -تبارك وتعالى- شاكرًا لأنعمه ومعرَّضًا لاجتبائه، طائعًا له في كل ما يؤمر دون تردّد أو تساؤل أو تلكّؤ، فمثل هذا الفرد يستطيع أن يؤسّس أسرة من ذكر وأنثى؛ لتكون تلك الأسرة «**أسرة أمَّة**» تتصف بكل الصفات التي ذكرتُ، ولو تدبّرتم آياتي ونظرتم كيف كنت أجمع بين ذكوركم وإناثكم، لا أُفرّق بينكم في عبادة أو عقيدة، وأخبركم أنَّ الله لا يضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى، بعضكم من بعض، وأمرتكم أن تحسنوا الاختيار حين تقرّرون إنشاء أسرة، وتدركوا أنَّكم مقبلون على بناء مؤسّسة لها ما قبلها ولها ما بعدها، فينبغي أن تُقام على أقوى الدعائم وأقوى وأمتن الأركان؛ فهؤلاء «الأفراد الأمم» منهم ينبغي أن تشكل الأسر، وعليهم يقوم بناؤها وتعلو عمارتها: ﴿أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ (آل عمران:١٩٥)، وأخبرتكم أنَّ أهواءكم ورغباتكم العارضة ينبغي أن تسدَّد وترشّد بما دعوتكم إليه من اختيار ما اخترت لكم، ونبهتكم إلى ضرورة ملاحظته ومراعاته، ألا وهو الصفات الثابتة لا المتغيّرة والأخلاق الراسخة لا العابرة. وأنّ هذا الأمر بالذات قد تختلط فيه الرغبات؛ ولذلك فقد أرشدتكم إلى ما يُسدّد ويصوّب اختياراتكم، فربطت خيريّة القرين -من زوج أو زوجة- بالإيمان، ونهيتكم عن الوقوع في خطأ الاختيار، فقلت لكم: ﴿وَلاَ تَنكِحُواْ الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنكِحُواْ الْمُشرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (البقرة:٢٢١)، ففي هذه الآية من

آياتي أوضحت لكم السبيل -سبيل الاختيار- وكونه أمانة؛ لئلا يحصل انحراف، وألمحت إلى أنَّ الأسرة ليست تعبيرًا عن الرغبات الجسمانيّة النوعيّة، وإنّما هي «مؤسّسة أمَّة» و«مؤسَّسة دعوة»، فإذا تناقض طرفاها فقدت فاعليَّتها وحيويَّتها ودخلت في إطار الصراع والتناقض، وآنذاك لن تجدوا الأساس السليم والدعائم القويمة التي تُقيمون عليها بناء الأمَّة، وبما تقدم قد وضعت بين أيديكم المقاييس والموازين التي تقرّرون بها مراتب الأشخاص ذكورًا وإناثًا، فتقام أسركم على الإيمان والعقيدة والعمل الصالح والتنافس في الخيرات؛ لتصبح الأسرة أمَّة بحدّ ذاتها؛ لأنَّها أسرة تكوّنت من إنسانيْن -ذكر وأنثى- كل منهما في حد ذاته أمَّة، ونواة أمَّة، آنذاك يمكن أن نجد الأسس السليمة لبناء شبكة العلاقات من النّسب والصهر والسكن والمودة والرحمة التي تُشكّل روح الجماعة، وتبني روابط الأمَّة على أسس ثابتة مستقيمة، تحمل معاني الاستمرار ومقوّمات الدوام، فانظروا في أسركم اليوم وطرائقكم في الاختيار والنّكاح والطلاق والتربية والتنشئة والعناية بالأبناء وبالأصول والفروع تجدون أنفسكم في حالة خلاف وشقاق مع كل ما جئتكم به في هذا السبيل؛ نعم حافظتم على بعض الأشكال، ولكن لم تبقوا على شيء من روحها ومقاصدها، فأشبهتم بذلك أصحاب القرية التي كانت حاضرة البحر: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ*وَإِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ*فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ*فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ (الأعراف:١٦٣-١٦٦).

لقد جعلتُ للنكاح ولبناء الأسرة أهدافًا بيَّنتُها، فقلت لكم: إنَّ **أهم أهداف النكاح** ثلاثة:

أولها: يعود على الزوجين، وهو السكن والرحمة: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم:٢١).

والثاني: يعود على المجتمع: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاء بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ (الفرقان:٥٤).

والثالث: دوام النوع واستمرار الحياة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء:١)، وها أنتم قد تنكّبتم السبيل السويّ وجعلتم للنكاح أهدافًا لا أعرفها ولم آتكم بها، فمنكم مَنْ يتزوّج طلبًا للمال أو سفحًا للماء أو رغبة في الجاه أو رغبة في الحسن والجمال والسمعة وما شاكل ذلك؛ ولذلك أصبح النّكاح عندكم فاقدًا لمقاصده، بعيدًا عن أهدافه، مغرقًا في أمور خارجة عنه، فلم تعد الأسرة عندكم أسرة متماسكة قويَّة يمكن أن يقوم عليها بناء مجتمع ثم أمَّة، وكثرت نسب العنوسة والطلاق والفراق والنّزاع والشّقاق فيكم، وأفسدتم أبناءكم وضيّعتم أماناتكم، وها أنتم اليوم تحصرون غاية النكاح في المتعة الجسديَّة، شأنكم شأن غيركم ممن لم يعرف هدايتي ولم يتصل بي، وأخذتم تتحايلون على ما جئتكم به؛ لتخترعوا لأنفسكم عقودًا ما أنزل الله بها من سلطان، لا تحقق من أهداف النكاح شيئًا؛ بدءًا بـــ«نكاح المسيار» إلى ما تسمونه بـــ«ـــالزوج فرند» و«نكاح المتعة» وغير ذلك، وصبغتم كثيرًا من أنكحة الجاهليّة -القديمة منها والحديثة- بالصبغ الشرعيَّة القائمة على الأشكال دون المقاصد، فأنَّى لهذه الأسر المفكّكة القائمة على تلك الدعائم المنهارة أن يُقام عليها بناء أمَّة؟!

إنَّكم لو تمسَّكتم بما جئتكم به في هذا الصدد ستجدون للعقيدة وللعبادة طعمًا آخر غير ما ألفتم، ستجدون أنَّ صفوفكم في المساجد -وأنتم تؤدّون صلاة الجماعة أو الجمعة أو العيد- هي نفس صفوفكم في مواجهة التحديات والتغلّب على الصعاب، والتكافل والتضامن وبناء المدنيّة والحضارة والتأسيس للعمران، هذه الصفوف المتجدّدة في مختلف

الأوقات ستُعطيكم الاستقامة التي يحاول الأئمة -وهم يرصون صفوفكم للصلاة- أن يحققوها، حين ينادونكم داعين لتسوية الصفوف وتقويمها والتهيّؤ لملاقاة الله -تبارك وتعالى- ستجدون آنذاك بينكم وبين الشعور بالغربة أو الاغتراب أو الفرديَّة حواجز وحجبًا وسواتر تحول بينكم وبينها؛ لأنَّكم قد نجحتم في التنشئة الحقيقيَّة التي دعوتكم إليها، فأقمتم الأمَّة أولًا في ضمير الفرد ثم في ضمير الأسرة وظلال البيت الذي تحيا فيه، ثم في شبكات العلاقات العديدة من جوار وغيره، وتأتي المرحلة التالية لتكون هذه الجماعة التي نشأ أفرادها بذلك الطريق وبنيت أسرها بتلك الوسائل، وربطت بشبكة هائلة من العلاقات انطلاقًا من تلك القيم، حتى تحولت إلى جماعة ذات صفوف مستقيمة تذكّر يوميًّا خمس مرات بضرورة استقامة صفوفها وتراصها، وبقائها كالبنيان المرصوص، لا فروج فيها ولا خلل، فإذا ظهر الخلل فذلك يعني أنَّ هناك مداخل للشيطان قد فُتحت، وتفهمون -آنذاك- معنى ما نُدِب أئمة الصلاة ليقولوا لـــمَنْ خلفهم: "سوّوا الصفوف، وسُدّوا الخلل، ولا تتركوا فرجة، ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم"، هذا النوع من التنشئة حين يُفهم فإنَّ بصائر هؤلاء وأبصارهم وحواسّهم كلها تصبح أعينًا فاحصة ترصد أي فرجة أو اختلاف أو إعوجاج أو عدم استقامة في المجتمع؛ لتبادر إلى غلقه وسدّ أبوابه وتجفيف منابعه؛ لتحافظ «الجماعة الأمَّة» على وحدتها وحيويَّتها وقابليّة التجدّد فيها، وتصبح في ضمير كل منها طاقة مختزنة معدّة؛ لتكون طاقة تنظيميّة واعية تتشبّث بالمقاصد القرآنيّة العليا الحاكمة التي جئتكم بها بيضاء نقيّة، وتحقق بينكم جميعًا مبادئ التضامن والوحدة والأخوة القائمة على قلوب قد ألَّف الله بي بينها، قلوب مُلئت بروح الإيجابيَّة والإخلاص والصدق والالتزام، روح تقرن الإيمان بالعمل والظاهر بالباطن، وتعزّز العقيدة بالشريعة وتحافظ على التزكية بالشعائر، ويصبح الالتزام بالأمَّة وقضاياها منبثقًا من القلب، منطلقًا من النفس قبل أن يكون محققًا بالنّظام، وبذلك يمكنكم أن تعيدوا بناء ذلك الكيان الذي سمّيته بالأمَّة؛ ليصبح كيانًا حيويًّا متينًا راسخ الدعائم لا يعتريه خلل أو اعوجاج، وتصبح الأمَّة وعاءً لي وأصبح سراجًا منيرًا لها، وستجدون أنفسكم -بعد أن أجمع بين قلوبكم- تشعرون بتجانس عجيب، وانجذاب من بعضكم للبعض الآخر، ومعرفة من كل منكم للآخر تقوم على تعارف القلوب قبل أن تقوم على وسائل التعارف الظاهريَّة،

وتجدون مصداق ما قاله رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- تفعيلًا لما جاء في آياتي من قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ (الصف:٤) ستجدون أنفسكم بنيانًا مرصوصًا يشد بعضه بعضًا، يأتلف ولا يختلف، يتعارف ولا يتناكر.

وآنذاك سيكون حكّامكم منكم، يحملون من الإيمان ما تحملون، وينتمون إليَّ كما تنتمون، ويتمسّكون بي كما تتمسّكون، لا تنكرون منهم شيئًا ولا ينكرون، لا يبغضونكم ولا تبغضونهم، ولا يمكن أن يكونوا من قوم يَفْرَقون؛ لأنّهم نشأوا بي كما نشأتم، وارتبطوا بي كما ارتبطتم، والتزموا بي كما التزمتم، لن تكون لهم قضايا غير قضاياكم، ولا برامج عمل غير برامجكم وما به جئتكم، ولا مقاصد في الحياة غير المقاصد التي أتيتكم بها، سيكونون معكم في العقيدة ومعكم في الشريعة ومعكم في الالتزام بي والاهتداء بهديي؛ لأنّهم منكم وأنتم منهم، فتستقيم حياتكم، وتصبح حياة طيّبة يفارقها الضيق والضنك، وتسودها المحبة والائتلاف ويُجافيها الاختلاف، سيكون لكم قادة منكم، أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين، يسمعون لكم وتسمعون لهم، تختارونهم ويختارون خدمتكم، هدفهم تقدم صفوفكم في تحقيق أهدافكم والقيام بشؤونكم من غير مَنٍّ أو استعلاء ولا إكراه لكم ولا استبداد بشأنكم، يشاورونكم في كل ما يأخذون ويدعون، إرادتهم هي أرادتكم وسعادتهم بسعادتكم، فلا تتبدّد طاقاتكم وطاقاتهم في الولاء والمعارضة، ولا يحدث فيكم ما تنكرون، بل ستجدون أمراءكم وقضاتكم ذوي لين ورأفة ورحمة، بعيدين عن الغلظة والفظاظة، ينأون بأنفسهم عن استعبادكم أو إذلالكم أو التفريط بحقوقكم أو موالاة أعدائكم أو معاداة أوليائكم، فهم منكم وأنتم منهم.

إذًا بأيديكم أنتم -إن أخلصتم لله وتحمَّلتم مسؤوليّاتكم- أن تُعيدوا بناء أمتّكم التي هي أمّتي أنّا «أمَّة القرآن»، لا شك أنّ ما أطلبه منكم ليس بالأمر اليسير ولا الهيّن بعد كل ما حدث من هجر لي وابتعاد عن سبيلي، ولكن اعلموا أنَّ الله سيعينكم عليه وسَيُيَسِّره ويهيئ لكم أسبابه كما هيأه من قبل لإبراهيم والأنبياء ومحمد خاتم النبيين الذي جدد أمَّة إبراهيم، وأعاد بناء ملّته وقدّم نموذج أمَّة هي أمَّة الأنبياء كافّة.

فإذا كنتم جادّين بأن تخرجوا من الحالة التي شكوتم منها، وتستعيدوا مكانتكم، وتجدّدوا بناء أمّتكم، وتستردوا وحدتكم فينبغي عليكم أن تضعوا حدًّا ونهاية لحالة الهجر التي سقطتم فيها بالانقطاع عنّي وتجاوز وإهمال ما جئتكم به، وحينها يعود «الفرد الأمّة» أساسًا ودعامة للأمّة، وحينها يتمّ التأليف بين قلوبكم بعد أن تُرسى دعائم الأُلفة بيني وبينكم من جديد وتستقيم العلاقة بيننا، فنعمل معًا -أنا وأنتم- بهدايتي وقيادتي وترشيدي على التأليف بين قلوبكم كما فعلت ذلك من قبل؛ لأجعل منكم -بعد التأليف- أمَّة واحدة تحمل رؤية كليَّة واحدة ذات وجهةٍ وقبلةٍ واحدة، وسلوكٍ موحَّد، وبعد أن نفعل هذا سنبدأ معًا الخطوات الأخرى؛ خطوة التحرُّك في المجال الإسلاميّ كلّه لنشر الأمرين السابقين.

إنَّنا -معًا- سوف نقوم برسم منهاج الحياة وخطة العمل؛ لاسترداد سائر المقوِّمات الماديّة والمعنويّة لترسيخ دعائم «التوحيد»، ونشر أسس «التزكية»، والعمل على تحقيق سائر متطلَّبات «العمران» لتلك الشرعة التي جئتكم بها بيضاء نقيَّة؛ لنعيد تنظيم الحياة بالأمَّة الخيرة الوسط الشاهدة، وترشيد حركة الحياة على وجه الأرض وسيرها، وتنشأة أبناء أُمّتي كافَّة عليها لتصبح عمليَّة استعادة دورها وموقعها نتيجة لتلك الوسائط، فنوجد المجتمع المتآلف، والعقيدة الموحَّدة، والرؤية الواحدة، والنظم التي تقوم -كلّها- على الشريعة الخالدة، فتشرق الأرض بنور ربِّها من جديد، وتسعد الأرض بظهور الأمّة الخيِّرة الوسط المؤهَّلة للشهادة على الناس والحضور الدائم بينهم وفيهم إن شاء الله.

*** *** *** *** ***

السؤال الخامس

في حوارنا معك أيّها القرآن حول إعادة بناء الأمَّة وصلنا إلى نتيجة أساسيّة هي ضرورة إعادة الارتباط بك، وتجاوز حالة الهجر بينك وبين المسلمين، فإن نحن فعلنا وعُدْنَا إلى رحابك، فما الذي ستبدأ به لإعادة بناء الشخصيّة المسلمة، أهو تأسيس الوعي، أم إعادة بناء العقيدة، أم إنماء المعرفة، أم أسلمتها، أم ماذا؟! ومن أين ننطلق، وكيف نبدأ؟

إجابة القرآن:

تأسيس الوعي العربي ومسوّغات البدء به:

تعلمون أنّ من أهم مقاصدي تأسيس الوعي العربي[٩]، وذلك ما سنبدأ به؛ لأنّ من العسير جدًّا أن تُفهم مقاصدي في «تأسيس الوعي العربيّ» إلاّ في إطار الإحساس بحاجة الأمَّة لإعادة بناء وعيها إلى «الوعي المفاهيميّ» القائم على تغيير المدركات الإنسانيّة؛ إذ هو الذي يمكّنها من إدراك الذات والآخر، ومعرفة موقع كل منهما من صاحبه في هذه اللّحظات التاريخيَّة الحرجة، وسنبدأ بحملة رسالتي الأولين العرب، لا مراعاة لطبيعة قوميَّة، ولا لارتباط خاصّ متحيّز لهم، بل لأمور أخرى سآتي لبيانها.

إنّني لم أرتبط بالعرب ارتباط التوراة واليهوديّة بالشعب الإسرائيلي، فتلك قضيّة أخرى ارتبطت بتجربة مفارقة، فلقد كانت القضيَّة الأساسيَّة للرسالة الموسويَّة تحرير بني إسرائيل من عبوديّة فرعون، وإخراجهم إلى أرض مقدّسة، وإخضاعهم لحاكميّة الله – تعالى– فكان قوام تلك الرسالة الخصوصيّة الإسرائيليَّة، فكأن الله –سبحانه وتعالى– أراد أن يضع بين أيدي البشريَّة نموذجًا صارخًا لما يمكن أن يفعله الاستعباد البشريّ والاستبداد السلطويّ في الإنسان عندما يستوليان عليه، فكان أن صنع الله قائدًا قوميّـــًا ورسولًا نبيًّا تمثّل في موسى، الذي نشّأه بحكمته في قصر فرعون، لا بين العبيد من قومه، فالعبد لا

[٩] حرصت في هذه الدراسة على إضافة "الوعي" إلى "العربيّ"؛ لأنّه الأكثر استهدافًا من الآخر، فهو يستهدفه ويستهدف وعيه أكثر من أيّ شعب إسلاميّ آخر، لإدراكه لخطورة موقعه الجغرافيّ ولوقوع البيت الحرام والمسجد الأقصى في أرضه والمحرمات والمقدسات زائدًا الثروة ومصادر الطاقة وعقد المواصلات العالمية التي تجعل منه ومن موقعه هدفا مباشرا للعالم كله، يضاف إلى ذلك انتماء "لسان القرآن" إلى لغته مما قد يفرض على العربي دورًا في الوعي والثقافة والمسئوليّة أخطر وأهم من سواه بكثير في المسئوليّة وليست وسيلة استعلاء عرقيّ.

يصلح لقيادة معركة تحرير، فأبعده عن وسط العبيد منذ البداية؛ ليكون حرًّا يحيا حياة واحد من أبناء الأسر المالكة بين الفرعون وزوجته، وحين حدث لموسى بعد ذلك ما حدث من تجارب، وأكمل الله صناعته على عينه جاء به على قدر ليُمارس دوره في تحرير الشعب، وإخراج تلك الديانة مع الشعب الذي حملها إلى الواقع؛ ولتتبيّن البشريّة الآثار الخطيرة للاستعباد البشريّ للبشر، فلا تسمح لنفسها بقبول الاستعباد والاستبداد مرّة أخرى بأيّ حال من الأحوال، فقد رأت الدنيا -كلّها- آثار العبوديّة في بني إسرائيل، وما زالت ترى وسترى الكثير، فهم قد رأوا من الخوارق والمعجزات العظيمة ما كان كفيلًا بتغيير نفسيّاتهم، ولكنّهم بمجرد أن عبروا البحر إلى الضفة الثانية، ورأوا قومًا يعكفون على أصنام لهم أدركهم الحنين إلى حالة العبوديّة قبل أن يُفيقوا من حالة الانبهار بشق البحر، فطلبوا من موسى النبيّ المحرّر أن يجعل لهم آلهة مثل أصنام أولئك.

لقد استمرت حالة الذل والانكسار نتيجة الاستعباد والاستبداد مصاحبة لهم في سائر مراحل تاريخهم، وما تزال آثارها قائمة فيهم مع كل ما مرّوا به في تاريخهم، فهل تعلّمت البشريَّة من ذلك درسًا، وذلك بأن لا تسمح للاستعباد والاستبداد أن يسيطر على أيّ شعب من شعوب الأرض؛ لئلا تكون فتنة في الأرض وفساد كبير، فإنّ الدروس والعبر المستفادة من قصص بني إسرائيل كفيلة بأن تجعل البشريّة في حالة رعب من ظاهرة الاستبداد والاستعباد.

أمّا العرب فقد أحسنوا -قبل تغيُّر علاقتهم بي- التلقّي، وأحسنوا التحمّل، ونجحوا في إعادة بناء أنفسهم، وتقديمها نموذجًا للشعوب الأميَّة كافة، وخلال فترة قصيرة غيَّروا بي معالم العالم القديم كلّه، ولقد أناط الله بهم مهمّتين أساسيّتين:

الأولى: تحويل الشعوب الأميّة التي احتقرتهم يهود وقالوا: ﴿قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ (آل عمران:٧٥) إلى شعوب كتابيّة قرآنيّة بتلاوتي.

والثانية: تصحيح مسيرة أهل الكتاب، وقد قام حَمَلَتِي الأوّلون ببدايات الأمرين معًا، وشقّوا الطريق إلى استكمالهما، ولم تفعلوا أنتم، فلم تستكملوا المهمّتين ولا إحداهما،

ولم تتابعوهما بعد أسلافكم، وأخلدتم إلى الأرض فلم توصّلوا رسالتي إلى العالمين، وكان في مقدوركم أن تفعلوا لو صدقت نواياكم وخلصت قلوبكم، وأدركتم حقيقة مهامكم، وجوهر رسالتكم، فأنتم مسؤولون عن كل مَنْ حُرم أنوار التوحيد، ولم توصّلوا له الحياة: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام:١٢٢)، فكل مَنْ هم في الظلمات والضلال والانحرافات من الأسرة الإنسانيّة تتحمّلون أنتم مسؤوليّة بقائه في الظلمات وعدم خروجه منها، وسوف يخاصمكم هؤلاء عند ربكم أنّكم لم توصّلوا له آياتي، ولم تعيدوه إلى الحياة بأنواري، وحجبتم عنه هدايتي لضعف إرادتكم وهبوط هممكم، وتخلّيكم عن واجباتكم.

كيف يفهم الإنسان العربيّ دوره:

إنَّ المنطقة العربيّة هي قلب العالم الإسلاميّ، تموج بمشاعر نفسيَّة مختلفة، وتحتاج – كلّها– إلى الترشيد وإيجاد الإرادة والفاعليّة؛ لنجعل من معطيات الأحداث الجارية وسيلة توعية، وأداة يقظةٍ، وبعثٍ، وإحياءٍ –كما فعلت ذلك مع آبائهم في جيل التلقي من قبل– لا وسيلة هزيمة نفسيّة وانسحاق، ولكي تكون تلك الأحداث وسيلة توعية وأداة بعث وإحياء لا بد من تفسيرها وعرضها على عقل العربيّ وقلبه، وعرض موقفي القرآنيّ منها، وما يمكن أن أمنحه من هداية لمعالجتها وتجاوزها والخروج منها، بحيث يصبح الإنسان العربيّ –آنذاك– قادرًا على فهم دوره، وقادرًا على إدراك علاقته بالله –سبحانه وتعالى– في مسيرته التاريخيَّة، وعلاقته بي باعتباري القرآن المجيد الميسّر له، المنزَّل إليه لهدايته؛ وأثر هذه العلاقة التي لا يمكن أن ينفصل عنها أو ينفك، ولا يمكن أن يتخلَّى عنها أو يتجاوزها، وإذا فعل العربيّ خلاف ذلك فإنّما يكون مَثَلُه كمثل ذلك الذي نزل فيه قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ*وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ*سَاءَ مَثَلا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾

(الأعراف:١٧٥-١٧٧)، فعلى الإنسان العربيّ أن يوقن أنّه لن يستطيع أن ينسلخ من آيات الله فيَّ، وأن يدرك أنّني قد استطعت النفاذ إلى صميم أوضاع الإنسان العربيّ في «تركيبته المنهجيّة قرآنيًّا»، تلك المنهجيّة التي تَكوّن هذا الإنسانُ العربيّ فيها في «جيل التلقّي»، وما زلت -وسأبقى- قادرًا على التغلغل في موقع المخاطَب في «الحركة والتاريخ».

لقد قمت ببيان موقع العربيّ من «الحركة والتاريخ» من قبل، وموقع العربيّ في الحاضر، وموقعه من نفسه، وموقعه في حالة صراعه مع الآخر، سواء أكان هذا الآخر إسرائيل أو غيرها؛ إسرائيل التي لن تتوقف عن النيل منه حتى تستعيد مواقعها السابقة لتزولي وللبعثة النبويّة منه، فلـ«ـالهولوكوست» وغيرها مجرد أداة تحريض وحضّ للإنسان اليهوديّ لاستعادة دوره الضائع وموقعه المفقود، والهدف الحقيقيّ لهم هو ذلك الشعب الأمّيّ الذي حلّ محلّهم وأزالهم عن مواقعهم التاريخيّة وتسلّم راية النبوّة منهم، وبذلك أنهى دورهم القياديّ إلى الأبد، وفي حالة تطوُّر هذا الصراع إلى أيّ مستوى أو شيء آخر، فينبغي أن تعلموا أنَّ القرآن المجيد قادر على الاحتفاظ بطاقاته تلك، وغرسها في قلوب وعقول المؤمنين به، المتدبّرين له، اليوم وغدًا.

القرآن المجيد وخصائص الوعي المفاهيميّ:

إنَّ إدراك «خصائص الوعي المفاهيميّ» التي يمكن أن أقدّمها للإنسان العربيّ في مرحلته الحاليَّة، وبيان وتفسير مَا يحدث فيها، يمكن أن تشكّل بداية الطريق على جادة «استعادة الوعي» والعودة إلى الذات، وهذه المرة لن تكون «استعادة الوعي» استعادة شكليّة بوعي تراثيّ أو تاريخيّ كما يظن كثيرون، فيبدّدون جهودًا كثيرة في نقد العلوم الدينيَّة أو تجديد «الفقه» أو «أصول الفقه» أو غيرها، فذلك قد يكون له بعض الفوائد في معالجة أزمة تلك المعارف، لكنّ الطريق إلى معالجة «أزمة الأمَّة» ما يزال طويلًا، وهناك مَنْ يحاولون أن يستحيوا خصائص «الواقع التاريخيّ» الذي كان، أو يحاولون المستحيل في أن يعيدوا إنتاج أيّ مرحلة من مراحل التاريخ، فـ«ـالوعي المفهوميّ» و«المفاهيميّ» الذي سيمنحه تدبُّر القرآن الكريم للعربيّ المعاصر هو وعي مختلف، لا يقوم على تكرار مَا

حدث؛ لأنّه وعيٌ يجعل من الإنسان العربيّ إنسانًا آخر، إنسانًا ينتمي إلى عالم جديد، هو عالم ظهور دين قيم الهدى والحق على الدين كلّه، بقيادة قرآنيّة، وفي إطار منظومة كبرى كاملة من القيم التي لا يمكن تجاهلها في أيّ شعب من شعوب الأرض، سيكون العربي إنسانًا يدرك بالقرآن والوعي فيه أنّه يحمل أعباء بناء «البديل القرآنيّ الإسلاميّ» عن «عالميَّة الصراع الوضعيَّة» القائمة الآن، وهذا البديل القرآنيّ الإسلاميّ العالميّ سوف تنبثق عنه -بإذن الله- «كونيّة الإسلام» المستأنفة المرتقبة التي تأسّست بالقرآن، و«الكونيّة» أعلى من مستوى «العالميّة»، وسوف أقودها أنا -القرآن المجيد- في هذه المرحلة بنفسي لأول مرة بعد غياب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، وبقاء سنّته وسيرته إلى جانبي يُقدم منهج اتّباع وتأويل وتفعيل وعمل بآياتي في الواقع، وبعد أن أعلن انتهاء «عالميَّة الأميّين الإسلاميّة الأولى» بعد إلغاء آخر رمز لها في (عام ١٩٢٤م)، وهي العالميّة التي قدمها بآياتي بتلاوة رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- وتعليمه النبويّ، وتفعيله لآياتي في الواقع؛ لتزكيته وتزكية أهله به: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ*وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الجمعة:٢-٣)، ستقوم «الكونيَّة القرآنيَّة» كونيَّة الهدى والحق والقيم القرآنيَّة العليا الحاكمة بإذن الله تعالى.

حالة اليأس الحاليّة:

إنّ حالة اليأس التي يعيشها العربيّ اليوم -يأسه من النهوض بعد الكبوة، ويأسه من أن يحقق الوحدة من جديد بعد الفرقة والشتات، ويأسه من أن يؤدّي دورًا جديدًا في التاريخ والحياة- هذا اليأس المسيطر الآن، الذي تعمل عالميّة الصراع على تكريسه بكل الوسائل سيزايله ويفارقه عندما يستطيع أن يستوعب آياتي، ويفهم الواقع الراهن بكل تفاصيله، ويدرك المؤشّرات والمحدّدات والمداخل المنهجيّة التي تشتمل عليها «منهجيّة القرآن المعرفيّة» وقدرتها الهائلة على الإصلاح والتصحيح والتجديد، وبناء الرؤية الكليّة والتصوّر القويم.

الانتشار الأول:

إنَّ القرآن الكريم ينبّه العربيّ إلى أنَّه قد خرج في مرحلة النزول في السابق بشكل مجموعة قبائل دخلت الإسلام لتشكيل أمّة دون تأطير قوميّ بالمفهوم المعاصر -ولم يكن الإسلام إطارًا قوميًّا- كالإطار القوميّ الإسرائيليّ، وما ينبغي له أن يكون، وقد انتشرت تلك القبائل العربيّة تحمل آياتي وتدعو إلى الإسلام مدخلًا عالميًّا لدخول الناس في السلم كافَّة، فلم يكن لها إطار إقليميّ، فالعروبة المجرّدة عن النزعات العرقيّة -وهي العروبة التي «أسلمتها» أنا القرآن- لا تتشكل بوساطة بُعْد عنصريّ أو إقليميّ، بعد أن هديتها وقمتُ بقيادة حركتها باتجاه الكل الإنسانيّ، لقد اندمج العربيُّ بالفتح في الإطار الجغرافيّ البشريّ لامتداد الانتشار الأول الذي يمكن تسميته بـــ«ـــالعالميّة الإسلاميّة الأولى» أو «عالميَّة الأميّين» ﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ (يس:٦) وهي العالميّة التي ضمّت في داخلها معظم الشعوب «غير الكتابيّة»، وذلك معنى مفهوم «الأميّة» وحقيقته، وتحقق بذلك قول الله جلّ شأنه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ*ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الجمعة:٢-٤)[١٠].

التحدّي اللّفظيّ سابقًا والتحدّي المعرفيّ والمنهجيّ حاليًا:

لقد نظر العرب -في انتشارهم العالميّ الأول- إليّ في إطار «بنائي اللفظيّ»، وفي حدود مَا أعطتهم قدراتهم العقليَّة، والسقف المعرفيّ لعصرهم في فهم المعنى الذي كان أعمق بكثير من تجاربهم الفكريَّة السابقة واللّاحقة؛ فجدّوا في الاقتداء برسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلَّم- والتأسّي به واتّباعه واتخاذ سنّته وسيرته منهجًا وسبيلًا لفهم مقاصديّ وفقه أبعاد الإسلام، وبديلًا عن البحث في فهم «المنهجيّة المعرفيّة القرآنيَّة»، أمّا الآن، وبعد تفكّك الأمّة المسلمة من جديد، وانهيار البنية الإسلاميَّة الأولى كما انتشرت بين الأميّين، وضعف هيمنة «منهجيّة الرواية والإسناد» إلى حدّ نزع الصفة العلميَّة عنها في المناهج المتداولة، فإنّ الخطاب القرآنيّ أو النصّ المحفوظ الذي حفظه الله -سبحانه

[١٠] راجع مفهوم «الأمّيّة» وتفاصيل معانيه في الحلقة الرابعة من سلسلة دراسات قرآنية: العلواني، طه جابر. لسان القرآن (القاهرة: دار الشروق،٢٠٠٦).

وتعالى- يكون حفظه مع «ختم النبوة» و«عالميّة الرسالة»، و«حاكميّة الكتاب» و«شريعة التخفيف والرحمة» بديلًا عن تتابع النبوّات وتتاليها، وقيادتها المباشرة للإنسانيَّة، وتنتقل الأمانة -كلّها- إليّ أنا -القرآن الكريم- بقراءة، وتلاوة، وتدبُّر الأمّة الشاهدة.

إنني أقدّم نفسي بديلًا أمام تجربة «الحضارة الوضعيّة العالميّة الراهنة» وأمام التراث المشوب المختلط الذي ورثتموه عن الآباء، أقدّم نفسي بعد أن نسي العرب أنفسهم في هذه الحياة وتجاهلوا دورهم وما لديهم، ولم يدركوا قدرتهم على القيام بأكبر مما يتعلق ببناء «اللفظ»، و«النظم»، و«الأسلوب»، و«الإعجاز البيانيّ»، وربما أضافوا ما يسمّونه بـــ«ـــالإعجاز العلميّ». في هذه المرحلة نرى أنّ القرآن المجيد يأبى أن يقدّم نفسه بتلك الهيئة؛ لأنّها لا تستطيع استنهاض همم البشريّة لتلاوته وتدبّره، وسوف يقدّم نفسه لهذا العصر الآن بمحتوى المعنى المعرفيّ والدلالات المفاهيميَّة للخطاب القرآنيّ، ومحتوى المنهج القرآنيّ، ويتقدّم إلى البشريّة في إطار منهجيّ كامل يستوعب سقفها المعرفيّ الراهن، فإذا كان تركيب عالميَّة الانتشار الإسلاميّ الأولى قد استند على المعنى اللفظيّ للقرآن، بالإضافة إلى الاتّباع والقدوة والتأسي برسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، ثم اتخاذ مفاهيم «جيل التلقّي» -الجيل الأول- بمثابة «الإطار المرجعيّ» الذي قام على «التطبيق التحوُّليّ» في مرحلة «الفقه الأكبر» وفي إطار الخصائص المحليّة، فإنّ «كونيّة القرآن الكريم» المرتقبة وخصائص خطابه، إضافة إلى «الخصائص العالميّة المعاصرة» التي تشكّل لنا السقف المعرفيّ الراهن ستقوم بعمليّة إعادة تكوين مستأنف للعربيّ المسلم؛ تكوينًا يجعله قادرًا على الاستجابة لتحديّات عصره بالمستوى المطلوب لها، وهنا لن يكون العربيّ ذلك الإنسان العاجز الذي ينتظر مَنْ يساعدونه، فيقترحون عليه الحلول، أو ذلك الإنسان الذي يحاول أن يواجه عصره بمعطيات عصور خلت -كما تفعل جماعات إسلاميّة ماضويَّة كثيرة في الوقت الراهن- ولكنَّه سيكون الإنسان القادر على أن يتفاعل مع عصره بمنهجيّة قرآنيّة معرفيّة متحدِّية معجزة، مستوعبة لسقفه المعرفيّ متجاوزة له.

إنّ العقليّة العربيَّة، أو عقليّة الإنسان العربيّ، في عصر «كونيّة الهدى والحق والقيم» عقليَّة سوف تتشكل عبر منهجيَّة مَا سمّيناه بـــ«ـــالجمع بين القراءتين»[11] وهضمها وممارستها لبلوغ حالة أعلى؛ هي حالة تتداخل فيها القراءتان؛ فيستوعب القرآن المعادل للكون وحركته بقراءتيه؛ ويساعد الإنسان في فهمه والكشف عنه وعن حركته، ويصبح الكون وحركته من أهم وسائل فهم و«تفسير القرآن بالقرآن» ذاته، لا بآراء المفسّرين وعلماء التراث وأصحاب التأويل، وآنذاك لا يكون هناك انقسام حادّ بين «عوالم الغيب والطبيعة والإنسان»، بل يكون الاتصال الوثيق الواضح الذي يقوده القرآن الكريم؛ ليجعل الإنسان قادرًا على البحث عن «النظام المنهجيّ» في سور القرآن وآياته؛ ليقترب من فهم «منهجيّة القرآن المعرفيَّة» التي هي الأصل في «مفهوم الشموليّة والكليّة القرآنيّة وعموم خطاب القرآن»، وظهور مقاصده.

إنَّ الله –سبحانه وتعالى– الذي أنزل القرآن حاملًا في مبناه ومعناه «وحدة منهجيّة كاملة» و«وعيًا شاملًا» للكون وحركته واستيعابًا لهما جعل عناصر استمراريّته وحفظه لا في نصوصه فحسب ولكن في **فهم هذه النصوص وتدبُّرها ضمن منهجيَّته**؛ أي ضمن «المنهج القرآنيّ» ذاته، وجهد الإنسان المطلوب إنَّما هو في **اكتشاف هذا المنهج** بتدبّر عميق وتفاعل شامل مع القرآن الكريم، تمامًا كما يكتشف الإنسان «المنهج العلميّ في الحركة الكونيّة» بتتبّع السنن والنواميس والقوانين الطبيعيّة، أو بالتفاعل العميق مع مختلف الظواهر الطبيعيَّة وتحليلها في خصائصها وعلاقتها؛ ليكتشف **الناظم العام الضابط لجملة الظواهر**، صاعدًا من التعدُّد والتنوُّع إلى الوحدة.

الإسلام رسالة الأنبياء كافّة:

إنَّ «إنسان الكونيّة» أو «العالميَّة الإسلاميَّة» المرتقبة لن ينظر إلى الإسلام على أنَّه مصطلح خاص بالدعوة المحمديَّة وحدها، فهي حلقة واحدة من حلقاته، باعتباره الدين الحق الذي جاء به الأنبياء كافّة، وفي مقدّمتهم أبو الأنبياء إبراهيم: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا

[11] لتكوين فكرة عن مرادنا "بالجمع بين القراءتين" راجع الحلقة الثانية من سلسلة "دراسات قرآنيّة": العلواني، طه جابر. الجمع بين القراءتين (القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥).

مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (آل عمران:٩٥)، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلا﴾ (النساء:١٢٥)، فالبعد التاريخيّ للإسلام ضارب بجذوره بعيدًا ليتّصل بالإبراهيميّة دون مرور بالعصبيّات والاتجاهات الحصريّة القوميّة والعنصريّة: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ المشركين﴾ (آل عمران:٦٧)، وبذلك يكون الإسلام هو الدين كلّه، فهو الدين الذي يحمل البعد الكونيّ العالميّ، الذي يعمل على الأخذ بأيدي الناس -كافّة- باتجاه الجوهر الأصليّ للدين، متمثّلًا بـ«الحنيفيّة الإبراهيميّة»؛ ليكون الدين -كلّه- لله، وينتفي عن الدين مَا يؤدّي إلى الصراع، بل يدخل المؤمنون كافّة في السِّلم: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (البقرة:٢٠٨)، ويخرج الدين من دائرة ذلك الوعي البشريّ القاصر الذي يجعل البعض يزعمون -غرورًا وطغيانًا- أنّهم أبناء الله وأحباؤه؛ لتصبح الأسرة البشريّة الممتدة التي خلقت من نفس واحدة أهلًا لحمل القرآن المجيد والاهتداء بأنوار هدايته؛ لتحقيق غاية الحق من الخلق، ولإيجاد ذلك التناغم بين الغيب والكون والإنسان.

ولنصل إلى الوعي القرآنيّ المطلوب لا بد من مداومة قراءة القرآن الكريم وتلاوته حق التلاوة، واستمرار تدبُّره والتفكر فيه، والنّظر في منهجيَّته، وتعقّل محدّداتها، والضراعة إلى الله -سبحانه- ليجعله نورًا لبصائرنا، وشفاءً لقلوبنا، وبردًا وسلامًا على نفوسنا، وموعظة، وهدى، وبشرى، ورحمة لنا، إنّه سميع مجيب.

القرآن والإصلاح:

إنَّ الأمَّة المسلمة منذ بدأت حالة الهجر الجزئيّ للقرآن الكريم وتجاوزتها إلى مساحات من الهجر أوسع تراجعت، ففقدت وحدتها وعزّتها وكرامتها في فترات كثيرة من التاريخ، حتى بلغ التراجع غايته ومنتهاه، وفي عصرنا هذا قامت محاولات تجديديّة وإصلاحيَّة كثيرة، بعضها حاول تقليد الآخر واتّباع نهجه وسلوك سبيله، فما زادها ذلك إلا خبالًا

وتشتّتًا وتراجعًا، ومع سائر المحاولات التي يقوم الآخر بها لتعزيز هذا الاتجاه فإنَّ الأمَّة قد اقتنعت الاقتناع التام بفشله وعجزه عن تحقيق أيّ خير لها.

وهناك اتجاه ثانٍ قام كرد فعل للاتجاه الأول، تبنَّى فكرة إعادة قراءة التراث، وفكّر -بعقليَّة سكونيَّة- بأنَّ في مقدوره أن يعيد إنتاج التراث، وتحقيق سائر النتائج التي تحققت في الماضي، وفي هذا تجاهل للسنن التي وضعها الله -تبارك وتعالى- لهذا الكون، وأنَّ الحياة سائرة إلى غايتها، وأنَّ أيَّ مخلوق في هذا الوجود لن يستطيع إعادة لحظة مرّت، أو إعادة إنتاج مَا وقع فيها، وأنَّ التفاعل الَّذِي يجري بين الواقع والإنسان والزمان والمكان، والأحداث التي تنتج عنها إنَّما هِيَ أمور لا يمكن إعادتها بشخوصها أو إعادة إحيائها؛ فالدنيا مزرعة للآخرة، والناس بآجالهم، والعصر الَّذِي ينقضي يأتي عصر غيره.

إنّ كلًّا من السبيلين يشتملان على هجر للقرآن الكريم، سواء أكان سبيل تقليد واتّباع باتجاه الجغرافيّا أو باتجاه اتّباع التاريخ، لكن السبيل الوحيد للإصلاح والتجديد يبدأ بالخروج من هجران القرآن الكريم، وإعادة قراءته وتلاوته حق التلاوة وترتيله حق الترتيل، وتدبُّره وتحطيم أقفال القلوب به، واستخراج المقاصد القرآنيَّة وقراءته قراءة نبويَّة تتجلى فيها كليّات القرآن ومقاصده وقواعده، واتخاذه المصدر الأعظم لإعادة تشكيل الأمّة، ومعالجة مشكلاتها، وإعادة بناء حياتها فكريًّا وثقافيًّا وعمرانيًّا وحضاريًّا؛ لأنَّ القرآن الكريم -بما اشتمل عليه وبأنَّه المحجّة البيضاء والنبيّ المقيم والرسول الدائم- هُوَ الَّذِي سيقودنا إلى الهدى ودين الحق، ويمكّننا من إعادة البناء والقيام بمهمة الاستخلاف وتحقيق الوسطيَّة والنهوض بالشهادة على الناس، ولا بد -والحالة هذه- من «الجمع بين القراءتين»؛ قراءة الوحي القرآنيّ والهدي النبويّ في اتّباعه وتأويله في الواقع فعلًا وحركةً وعمرانًا وحضارة، وقراءة الوجود بسننه وقوانينه وآياته، وآنذاك سوف يرى الإنسان آيات الله -تبارك وتعالى- البيِّنات في النّفس البشريَّة، والكيان الاجتماعيّ، والبناء الأسريّ، ومنهج تجديد حال الأمّة وإصلاح شأنها، كما سيرى ذلك في سنن الكون وقوانينه.

الأمم المصطفاة وخصائصها:

لقائل أن يقول: لِمَ يُربط تقدمنا وتراجعنا بالقرآن المجيد وهناك أمم كثيرة -لا تؤمن بالقرآن ولا تعرفه- قد حققت لنفسها مستويات عالية من التنمية والتقدم؟! ونقول: إنَّنا أمّة لم تنشأ عن فراغ؛ بل إنَّنا امتداد لأمم سبقتنا، فنحن ذريّة من بعدهم، ونحن ذريَّة مَنْ حمل الله -تبارك وتعالى- مع نوح، ونحن على إرث من إبراهيم وبنيه، ولقد اصطفى الله -تبارك وتعالى- آدم من بين الخلق ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين، وشاءت حكمته في مرحلة من المراحل أن يصطفي بني إسرائيل ويجعل منهم نموذجًا للعالم يمكن لأمم الأرض أن تراه وتتأثَّر به، وتحاول أن تكون مثله، تتأسَّى به وتتَّبعه، وتسلك سبيله في الخروج من عبوديَّة العباد إلى عبوديَّة رب العباد؛ إله العالمين وخالقهم وبارئهم ومصورهم جلّ شأنه، لكن **التجربة الإسرائيليَّة** قد فشلت؛ لأنَّ بني إسرائيل بعد أن استوفوا مؤهّلات الاصطفاء بما صبروا، وجعل الله -تبارك وتعالى- منهم أئمة وأنبياء وخلفاء وملوكًا وقعوا في حالة هجر لما أوحي إليهم، وخصام مع النبيّين الذين جاؤوهم بذلك الوحي، ونسيان وتناسٍ لبعض مَا أنزل إليهم، وتنكّروا للتوراة، وتغيّرت علاقاتهم بالكتاب إلى مثل علاقة الحمار بالكتاب، لا يملك إلّا أن تضع على ظهره حملًا، قد يشعر بخفته أو ثقله ليس إلا، أمّا فهمه واستيعاب معانيه أو العمل به والسير بمقتضاه فذلك أمر لا تجيده الحمير؛ ولذلك فقد جاءت كلمة الله -سبحانه وتعالى- باستبدال تلك الأمَّة بنا، وإزاحتها عن موقعها ليُحلّنا محلها، فينظر -سبحانه وتعالى- كيف نعمل! وقد حذّرنا -جلّ جلاله- أن نسلك سبيلهم، أو نقع فيما وقعوا فيه، وضربهم لنا مثلًا، فقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (الجمعة:٥)، وقال في إبدالهم بنا: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (فاطر:٣٢)؛ لنكون الأمّة البديل عن بني إسرائيل، فلا نسلك سبيلهم، ولا نسقط فيما سقطوا فيه، فنحن أمّة اصطفانا الله -تبارك وتعالى- ورثة لرسالاته، فلا نملك أن ننصرف عن هذه الحالة أو أن نتابع الأمم الأخرى.

ومن حيث العلاقة الحماريَّة بالكتاب الكريم فإنَّهم قد سقطوا في أمرين عظيمين:

الأول: أنَّهم نسوا حظًّا مما ذُكّروا به، فتقطّعت بينهم روابط الأمَّة، وأغرى الله -تبارك وتعالى- بينهم العداوة والبغضاء، وجاءتهم المصائب من كل جانب، فتقطّعوا في الأرض أممًا، وتشتّتوا في جوانبها أشتاتًا بعد أن جمعهم الله -تبارك وتعالى- في أرض قدّسها وباركها: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىَ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمُ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة:١٣).

الثاني: أنَّهم هجروا كتبهم المنزلة -«التوراة» و«الإنجيل» و«الزبور» و«صحف إبراهيم وموسى»-، وقالوا: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ (سبأ:١٩)، وحملوا مَا أنزل الله -تبارك وتعالى- إليهم من كتب حمل الحمير، وفقهوا دينهم بمنهج بقريّ، أشارت إلى ذلك قصة البقرة، وما ذكر الله -سبحانه وتعالى- قصصهم لنا بكل تلك التفاصيل، وأعادها مرارًا، إلا ليحذِّرنا من الوقوع فيما سقطوا فيه، ومن المؤسف أنَّ كل تلك التحذيرات الإلهيَّة والتنبيهات النبويَّة -التي وجّهت إلى أمّتنا- جرى نسيان بعضها كما حدث من بني إسرائيل، وتم تجاهل البعض الآخر منها، فسقطت أمّتنا في الخطيئتين اللّتين سقط فيهما من سبقنا: نسينا حظًّا مما أنزل علينا، فأغرى ذلك بيننا العداوة البغضاء، وتحلَّلت روابطنا وتفككت علاقاتنا وتحوّلنا إلى فرق وطوائف ومذاهب شتى، يلعن بعضها بعضًا، ويُكفّر بعضها بعضًا، ثم رجعنا للسقوط في الحالة الأخرى، وهي حالة إقامة العلاقة الحماريَّة مع القرآن الكريم بدلًا من العلاقة الإنسانيَّة، والعلاقة الحماريَّة -إذا كان لها أن تنتج فقهًا أو فهمًا في الكتاب- ما تُنتجه لا يتجاوز خصائص «الفقه البقريّ» الَّذِي أشرنا إليه.

*** *** *** *** ***

السؤال السادس

أيّها القرآن، نفوس النّاس مختلفة ومتفاوتة في صفاتها، وقد يلاحظ مَنْ يتابع حركتك وأنت تخاطب النّفوس البشريّة آثارًا مختلفة في تلك النفوس لخطابك، بحيث أكاد أشعر – وأنا ألاحظ خطابك لتلك النفوس المختلفة المتفاوتة في صفاتها– وكأنك تخاطب كل نفس على حدة، وتُحدث فيها من الآثار آثارًا متفاوتة مختلفة كذلك، وبما أنّنا نتمنى أن نكون من حملتك ومن خدّام خطابك فإنّنا نرجو أن تكشف لنا عن منهجك في مخاطبة النفس الإنسانيّة، وطرائق تأثيرك فيها إيجابًا وسلبًا، ففي ذلك توجيه لنا يجعلنا قادرين على توجيه خطابك لتلك النفوس بشكل مؤثّر ومناسب.

إجابة القرآن:

يقودنا القرآن هنا إلى فضاء فسيح حُشر النّاس فيه من كل صنف ولون، واجتمعت فيه أعداد هائلة من النّفوس البشريَّة بطبائعها المختلفة، وإذ نتصوّر القرآن الكريم يخاطب هذه البلايين البشريَّة بخطابه فلا يستطيع أحد أن يتجاهله أو يكون بعيدًا عن تأثيره، ونجد القرآن المجيد وهو يوجّه خطابه يحمل شحنة من طاقة هائلة تتجه بكل ثقلها نحو قوى وعي المخاطب أيًّا كانت ثقافته أو مستواه العلميّ والمعرفيّ أو قدرات الذكاء فيه، فلا يلبث إلا قليلًا حتى يفتح لنفسه نافذة إلى قوى وعي كلٍّ من تلك البلايين، ثم يبدأ بالتفاعل معها باستراتيجيّة معجزة متحدية من المتعذر أن نجدها في أي خطاب غيره، وكأنّ القرآن يقول:

إنّني أتوجه إلى وعي المخاطَب لإنشاء حوار وجدل مع قوى وعيه، يشتدّ أحيانًا ويهدأ أحيانًا أخرى، حسب فهمي لوعي المخاطب وتصنيفي لأنواع المخاطبين وقناعاتهم وعاداتهم ومألوفاتهم التي سبقت توجيه خطابي إليهم، وما فيه من اتجاهات تغييريّة إصلاحيّة، إنّني أستدرج وعي المخاطب؛ مؤمنًا كان أو كافرًا أو منافقًا مهديًّا أو ضالًّا؛ لأوصل إليهم جميعًا المعاني التي أحملها والغايات التي أبتغيها، وأستمر في الطرق على قوى وعيهم والاشتباك معها حتى أوصّل معانيَّ إلى ذلك الوعي، وأمكّنها من اتخاذ مواقعها فيه،

غير غافل عن أنّ وعي المخاطبين -باختلاف أوصافهم- وعي يتدافع فيه القبول والرفض والإيجاب والسلب والسؤال والجواب، فمنهم مَنْ يكتشف في خطابي إجابات عن تساؤلاته تساعده على حسن استقبالي والإخبات لآياتي، وتخرجه من حالة تردّده، ويرى فيها الصّلة بواقعه ومشكلات ذلك الواقع، وبذلك أثير كوامنه وأنبّه دوافعه، وأجعله يشعر بمضامين آياتي وأهميَّتها له، وقد يُعيد المخاطب إليَّ السؤال مرة بعد أخرى إذا أدرك قدرتي على الإجابة ومعالجة المشكلات، فيكون خطابي بمثابة وسيط يتردد بين المعاني التي اشتملت عليها ومشكلات السائل المخاطب، وأحيانًا أبادر أنا باختبار قوى المخاطب السائل وتحديد صفاته؛ لأتدرّج معه في الرّقي بطاقاته وقدراته إلى مستوى إدراك معانيّ وفهمها، جاعلًا ذلك المخاطب يدرك ما فيّ من معانٍ وتأثيرات ومنطق وقدرة على الإقناع، بحيث يهيء المخاطب نفسه ووجدانه وسائر قوى وعيه الكامنة والظاهرة لحسن استقبال خطابي، والانفعال بمعانيّ، وعدم إغلاق أيّ باب من أبواب وعيه دونه، وقد ألاحظ أهم الاعتراضات التي تثور في نفسه عندما يتلقّى خطابي في لحظة اتصاله الأولى به؛ وذلك لتضمين إعادة خطابي، أو ما أجعله يظنّ أنّه إصدار ثانٍ أو توكيد لخطابي السابق إليه، ولكن بمنهج وطريقة مؤثرة بشكل أكبر، بعد تهيئة نفسه وعقله ووجدانه وقلبه وسائر قوى وعيه يكون الجواب عن أسئلته -آنذاك- أشد وقعًا وأكبر تأثيرًا في قوى وعيه.

وأكثر ما تكون أسئلة المخاطبين غير المؤمنين حول «الحجيّة» لتحقيق القناعة بالمضمون الجديد، وقد يطرح سؤال عن «الشرعيّة» لتجاوز عقبة شرعيّة الموروث والفكاك من أسره، والنظر في البدائل التي يقدّمها الخطاب الجديد الذي أوجّهه إليه؛ لتجاوز فكرة الخوف من الفراغ أو المجهول أو أيّة مخاوف أخرى، فإذا بلغت بقوى وعيه مستوى الاستعداد لتجاوز الموروث والخروج من المسلّمات المستقرة فإنّ خطابي يكون قد استوفى مكوّناته ومقوّماته لخوض معركة يمكن كسبها على مستوى الوعي وعلى مستوى الواقع، وخطابي -أولًا وآخرًا- هو خطاب مَنْ يعلم مَنْ خلق وهو اللطيف الخبير، فهو يحمل روحًا من أمره، يمنح ألفاظي قدسيّة جعلتها جزءًا من مقوّمات العبادة، وخطابي -والحالة هذه- خطاب الغني الحميد الذي لا ينتظر من المخاطب نفعًا ولا يخشى منه ضرًّا ولا يريد منه رزقًا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾

(فاطر:١٥)، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ*مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ*إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ (الذاريات:٥٦-٥٨)، ويلاحظ ما قاله إبراهيم وهو يحاور قومه ويجادلهم لتغيير مسلماتهم: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ*إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ*قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ*قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ*أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ*قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ*قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ*أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ*فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ*الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ*وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ*وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ*وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ*وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ*رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ*وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ*وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ*وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ*وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ*يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ*إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء:٦٩-٨٩)، فهذا الذي ذكرته عن حوار إبراهيم وقومه يقدّم معالم منهج لحوارات مع مَنْ أخاطبهم لتغيير مسلّماتهم المستقرة في قلوبهم وتجاوزها، فأنت أيها المخاطب الذي أخاطبه أوجه خطابي إليك، لا لآخذ منك شيئًا، بل لتُعطى وتُرزق وتُهدى وتُرشَّد وتُسدّد ويُجاب عن أسئلتك، وتخرج من حيرتك، وتُلبّى احتياجاتك على امتداد حياتك كلّها، ذلك الامتداد الذي لا تستطيع دوني أن تحيط بمجالاته، وكل ما أطالبك به عائد لك ولأمك الأرض، ولمجالاتك الاجتماعيّة، فهو لك في حياتك الممتدة ما بين عوالم **الأمر والإرادة والمشيئة والذر والطين والحمأ المسنون والبشر المستخلف المؤتمن على الخلق كله حتى عالم المآل والمصير والخلود** الذي تتطلع إليه بكل أشواقك، والذي كان أهم نقاط ضعف أبيك، حيث نسي فاستجاب لغواية عدوّي وعدوّه وعدوّك الشيطان، فخطابي ينطوي على كل هذه العوالم ويحيط بها ويهيمن عليها، وذلك وجه واحد من أهم وجوه عظمتي وإمكاناتي المطلقة.

وتيسير الله -سبحانه وتعالى- لي وتطويعي لألسنتكم وتنزيله إيّاي بأحرف وكلمات وعبارات تشبه -في بعض جوانبها- ما تتخاطبون به، هو تنزيل من رفيع الدرجات ذي العرش، الذي يُلقي الروح من أمره على مَنْ يشاء من عباده لِيُنذر يوم التلاق، يوم تلاقي

ابن التراب مع ربّ الأرباب الذي نزّلني متعاليًا؛ لأكون في متناول فهمك ووعيك، ولتمكينك من القيام بحق أماناتك والنجاح في مرحلة ابتلائك.

وخطابي -على ثقله- ظلّ يتنزل إليك على مَنْ اصطفاه الله -تعالى- منكم رسولًا ونبيًّا من أنفسكم، عزيز عليه ما عنتّم، حريص عليكم، بالمؤمنين رؤوف رحيم؛ ليتلقاه في مرحلة التنزّل، ويجعله بين أيديكم، ينفعل به قبلكم، ويصبح به مرآة تعكس سائر قيمي التي مثّلها -صلّى الله عليه وآله وسلّم- في إيمانه وسلوكه وتعامله أمامكم، وتلاه عليكم، فسمعته آذانكم على محدوديّتها، ويسّر لكم سبيل فقه قلوبكم لخطابي على ضعفها، ولتدركه أبصاركم على كلالها، وتخطّه أيمانكم على سذاجتها، وتستنير به بصائركم على ضعفها، وربما غرّكم هذا فتوهّم بعضكم أنّني من جنس الخطاب البشريّ، فحاول الهيمنة عليّ بقوانين الخطاب البشريّ وقواعد اللغات، وما تعارفتم عليه في اشتقاقات ألفاظكم وتصاريف كلامكم.

لقد غرّكم منّي تنزّلي فلم تدركوا الحكمة في ذلك، وربما حال ذلك بين بعضكم وبين الإحساس بعظمتي وما فيَّ من قدرات التعالي والتجاوز والهيمنة والإحاطة، فشددتموني إلى مناسباتكم، وظننتم أنّني لم أتنزل إلا إليكم، ثم جعلتم منّي ناسخًا ومنسوخًا وعاملًا فاعلًا ومعطلًا ومجملًا ومبينًا ومطلقًا ومقيّدًا ومتشابهًا ومؤوّلا وتوريةً ومجازًا ومتواطئًا وكنايةً ومشتركًا ومترادفًا وخاصًّا وعامًّا، وأطلقتم ذلك في سوري وآياتي دون تحفّظ أو تردّد أو توكيد منكم على أنّ ذلك إنّما هو بالنسبة لكم ولقدراتكم الاستقباليّة وأزمانكم ومحدوديّاتكم، وأنّه لا يمثّل حقيقتي في ذاته بقدر ما يمثّل زوايا النظر منكم إليّ، لقد قطّعتموني أعضاءً وأجزاءً، ولم تنظروا إليَّ على أنّ آياتي نزلت منجّمة نجومًا؛ لتذكّركم بمشابهة نجومي لنجوم السماء، فآياتي نجوم تهتدون بها لا نجومًا تتحكّمون بها.

إنّ أكبر الأزمات الإنسانيّة التي واجهت عمليّات استقبالها للخطاب الإلهيّ لم تكن في مجرّد الرفض لتلك الكتب أو عدم الإيمان بأنّها من عند الله، فتلك أمور لا تصعب معالجتها، ولكنّها تكمن في طرائق تعامل مَنْ أُنزل إليهم الخطاب الإلهيّ تعاملًا بشريًّا محكومًا بما تعارفوا عليه فيما بينهم من مألوف لسانهم، وأنّه ليس شيئًا سوى ذلك،

وتجاهلهم للفرق الكبير بين اللغة حين يستعملها الإنسان للتعبير عن مكنوناته، واللغة حين يستعملها خالقه ليُضمّنها نوره وهدايته لخلقه.

إنّ الجُمل والعبارات حينما ينطق بها الخالق العظيم لا تكون مجرد كلمات وحروف، بل تصبح آيات كالشمس والقمر وسائر الآيات الإلهيّة الأخرى، وتطوي في جوانحها ما تطويه من الهداية والنور والمعاني والإجابات التي تتكشف عنها عبر العصور بظهور حاجات الأمم في العصور المختلفة، وما تثيره تطورات حياتهم من أسئلة ومشكلات وأزمات، فكأن المعاني تتنزّل مع بروز الأزمات والمشاكل والأسئلة، وإذا كانت «الجاهليّة العربيّة» قد استحالت إلى إسلام خلال ثلاثة وعشرين عامًا فإنّ أي عصر تال وأيّة بيئة أخرى يمكن أن تجعل من أسئلتها وإشكاليّاتها أسباب نزول للمعاني الجديدة التي تنطوي مكنوناتي عليها، ولا تبخل بتقديمها لـــمَنْ يحتاجها، كل ما في الأمر أنَّ الجاهلية العربية كانت نجومي تتنزل عليها لمعالجة أزماتها وتفكيك مسلّماتها وتحويلها إلى الإسلام، وبذلك تمنح الحياة الحقيقيّة، فترولي يأتي بعد أن تقوم الأزمة في البيئة وتصوغ البيئة السؤال وتنتظر الوحي.

أمّا في العصور التالية للعصر النبويّ فإنّني أنتظر من البيئة والناس أن يأتوا إليّ بأزماتهم وقد حوّلوها إلى أسئلة بعد دراسة جوانبها العديدة، وتتجه إليّ ضارعة مفتقرة تسألني الجواب الشافي، وعندما أعرف منها الإخلاص والطهارة والإقبال التام فقد أقودها إلى الكامن فيّ والمضمر، وقد أنبّهها إلى التاريخ وقصص الأمم السابقين، والسنن التي حكمت مسيرتهم؛ لتستخرج العبر والدلالات من ذلك، وتعالج حاضر أزماتها بما يناسبها بهدى واستنارة في رحاب الكون -كله- وبذلك تمنح حلولها وتنهي مشاكلها، فأنا رائد لا أكذب أهلي، وقائد لا أخذل جندي، وهاد لا تلتبس عليّ السبل.

فحين أجد إنسانًا قد غرّه ماله، وبطر معيشته، واستكبر وأعرض بجانبه، فقد أُغلظ له القول؛ لأوقظه من غفلته، وحين اغتر أحد عظيمي قريش بماله وبنيه واستكبر على التالي المتلقي -صلّى الله عليه وآله وسلَّم- سارعت إلى إبراز عظمة خُلق رسول الله، وبعد أن سرّيت عنه -عليه الصلاة والسلام- وبيّنت له ولسائر السامعين عظمة خُلقه وسلوكه،

واستحالة إصابته بالجنون أو بأي مرض يرمونه به هاجمت ذلك الطاغية الذي تجرّأ عليّ وأخرسته إلى الأبد، فقلت: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ*هَمَّازٍ مَّشَّاء بِنَمِيمٍ*مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ*عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ*أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ*إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ*سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ (القلم:١٠-١٦)؛ ولذلك فقد أُخرس وقبع في بيته حتى مات؛ لأنّه أدرك ثقل خطابي، وأنّه سد في وجهه سائر أبواب الغرور والإحساس بالعظمة والتعالي على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم.

وقد خاطب الله -في موقع آخر- مَنْ استكبر عن آياتي وجحدها وجحد نسبتها إلى الله تعالى، فأنزل الله فيّ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا*وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا*وَبَنِينَ شُهُودًا*وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا*ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ*كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا*سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا*إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ*فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ*ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ*ثُمَّ نَظَرَ*ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ*ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ*فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ*إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ*سَأُصْلِيهِ سَقَرَ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ*لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ*لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ*عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ (المدثر:١١-٣٠)؛ لأنّ الاستكبار على رسول الله والطعن فيه والاستكبار على آياتي والانصراف عنها يقتضي تلك الصرامة في الموقف، وهكذا أواجه الطغاة الذين لا أمل في اختراق قوى وعيهم وإدخال النّور إليها ومنحهم الحياة، فأزيدهم في هذه الحالة عمى؛ لينتهي دورهم تمامًا ويفك الارتباط بينهم وبين مَنْ قد يتبعونهم أو يتأثرون بهم من بني البشر.

لكنّني حينما أجد مخاطبًا قد أثقلته ذنوبه، وشعر بها، وبدأ اليأس من رحمة الله يصبح سلاح الشيطان الأخير للقضاء عليه، أفتح باب الأمل والنور أمام عينيه، فيُخاطب بـــ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر:٥٣)، وأعطيه التوجيه اللازم لدفع ذلك اليأس، وأرسم له السبيل السويّ لمغادرة تلك الحالة؛ ألا وهي الإنابة إلى الله واتباع آياتي وما نزلت به: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ*وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (الزمر:٥٤-٥٥)، فهكذا أعطيته الأمل وأعطيته المنهج؛ ألا وهو الإنابة

والاتباع؛ ليخرج من الحالة التي هو فيها، وأشعرته بأنّه ما دام حيًّا، وما دام هناك فسحة في الأجل فعليه أن يستثمرها، وبذلك أغلقت باب الشيطان و لم أجعل له أيّة فرصة أو سبيل للاستبداد به وجعله من وقود النار بذلك اليأس الذي يغريه به الشيطان ليعب المزيد من الشهوات وينغمس في المزيد من الانحرافات، وفي موقع آخر أقول لمثل هذا: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ (طه:٨٢).

وحين أرى المشرك يستصغر جريمته، وينظر إليها على أنّها أمر لا يستحق أن يؤرقه ويدفعه إلى القلق وممارسة التوبة النصوح أُنبّهه إلى خطورة الأمر، فأقول له: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (النساء:٤٨).

وإذا رأيتُ مَنْ أغراه مفهوم التوبة وجعله يُسوف بها آملًا في فسحة في الأجل أطول، فيتبع نفسه هواها، ثم يتوب بعد أن يعجز عن ممارسة الذنوب، إمّا لتقدّم في العمر أو تردٍّ في الصحة؛ فإنّني أبادر إلى دعوته إلى التوبة، وأوضح له أنّ التوبة ينبغي المسارعة إليها، فأقول لمثل هذا: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوَءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللّهُ عَلِيماً حَكِيمًا*وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (النساء:١٧-١٨).

وإذا وجدت مَنْ يتردّد في تحمّل أعباء الجهاد والكفاح ويقول: ﴿وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ*فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ (التوبة:٨١-٨٢)، فهنا قد بادرت بتذكيره بأنَّ النّفرة في هذا الحر الشديد هو جُنَّة تقيه النار ونار جهنم: ﴿وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ (التوبة:٨١).

وحين أعمل على مساعدة الإنسان للتخلّص من نزعة الشحّ التي ابتلي بها آتيه بذلك الخطاب الرقيق من كونه حين يتصدّق على فقير أو محتاج إنّما يتعامل مع الله تعالى: ﴿مَن

ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (الحديد:١١)، فأُخرج مال الصدقة من كونه مالًا ذاهبًا بلا عوض إلى قرض ثابت مؤكد وفاؤه؛ لأنّه قرض على الغنيّ -جلّ شأنه- الذي يستحيل أن لا يوفي، فهكذا أخاطب الناس على قدر عقولهم واستعداداتهم، مع ملاحظة نفوسهم وقوى وعيهم ونزعاتهم ونزغات الشيطان عدوهم،كل ذلك أجعله في حسابي وأنا أوجّه خطابي إلى هذا الإنسان الذي أريد له الهداية والسداد والرشاد، وما من آية من آياتي إلا وفيها خطاب يمكن خلال فهمه وتحليله ودراسته أن تكتشف اتجاهات التأثير ومناهجه وسبل تحقيقه في مختلف النّفوس.

إنّني كلام الله العليم الحكيم الخبير: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الملك:١٤)، فالله -جلّ شأنه- الذي أنزلني، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وهو مع الإنسان حيث يكون: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (التغابن:٤)، ﴿وَاللّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ (النحل:١٩)، ﴿أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (هود:٥)؛ ولذلك فإنّي حين أخاطب الناس يعلم مُترلي كل ما في أنفسهم، وجوانب صحّتها ومرضها، واستعداداتها ونزعاتها، وما ينفعها وما يضرّها؛ ولذلك فإنّي قد أُضَمّن خطابي نوعًا من الجدل مع نفوس تحتاج إلى أن تجادل لتُفْحَم وتستسلم ويُزايلها الغرور، فحين يُحاجج طاغية إبراهيم في ربه فيقول له إبراهيم: ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ (البقرة:٢٥٨)، فإذا بغروره وصلفه يحمله على القول: ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ (البقرة:٢٥٨)، فيقول له إبراهيم: ﴿فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:٢٥٨)؛ لأوقظه من غفلته، ولأجعله يدرك أنّ قدرته الظاهرة التي اغتر بها -وهو يمارسها في بشر يحكمهم- سوف يُدرك أنّها غير فاعلة حين ينتقل إلى الطبيعة فيُبْهَت، ويدرك جوانب عجزه وقصوره؛ ولذلك فحين قال له إبراهيم: ﴿فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:٢٥٨)، لم يحر جوابًا، لكنّه بُهت وأدرك أنّ دعواه الألوهيّة أو الربوبيّة دعوى فارغة لم تنجم عن قدرة، لكنها نجمت عن غرور: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ

يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:٢٥٨). وحين أجد مؤمنًا كالذي مرّ بالقرية فحملته حالة الدّمار التي رأى القرية عليها أن يستبعد إمكان إحيائها؛ فيُميته الله مئة عام ثم يبعثه؛ ليُريه كيف يُحي الله الموتى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (البقرة:٢٥٩). وحين تتوق نفس مؤمنة مطمئنة إلى مزيد من الطمأنينة، مثل نفس إبراهيم ذات النظر الواسع في الكون، والذي ضرب للبشريَّة من بعده أروع الأمثلة في الاستدلال على الخالق العظيم بما خلق، فحين يقول: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة:٢٦٠)، فهنا لم يكن طلب إبراهيم دليلًا على شكّ في القدرة أو ضعف إدراك لكمالها وتمامها، بل كان بناء على رغبة في مزيد من الطمأنينة واستقرار النّفس وثباتها، ومزيد من الفهم للكيفيَّة التي يُحي بها اللهُ الموتى؛ فيكون الجواب آنذاك مختلفًا.

وحينما تنزل آياتي لتغيير أمور قد استقرت في عقول وقلوب البشر حتى صارت نوعًا من المسلّمات، بحيث لا يتقبّل أولئك جدالًا فيها؛ فإنّي أسلك فيها مسلك ضرب المثل، وأفعل ذلك بواسطة أولئك الذين اصطفاهم الله من رسلهم؛ لأنّهم هم الذين يحملون الأهليّة والقدرة على فعل ما يمكن أن يُغيّر تلك المسلّمات؛ ولذلك حين أراد الله -تبارك وتعالى- أن يُزيل خطيئة «القربان البشريّ»؛ أي اتخاذ البشر قربانًا، فإنّه -سبحانه- قد عمد إلى تكليف إبراهيم بالقضاء على هذه الجريمة الكبرى المتأصّلة، التي استطاع الشيطان أن يغرسها في قلوب كثير من المشركين، فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلاَدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (الأنعام:١٣٧)، ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُواْ أَوْلاَدَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ اللّهُ افْتِرَاء عَلَى اللّهِ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ (الأنعام:١٤٠)، وهنا كان لا بد

من ضرب المثل العملي على يد رسول التجارب إبراهيم -عليه السلام- للقضاء على هذه الجريمة الخطيرة واستئصالها من جذورها، فكان إبراهيم وإسماعيل النموذج والمثل الذي علّم البشريّة استبدال القربان البشري بقربان من بهيمة الأنعام، فحين قال إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ*فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ*فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ*فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ*وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ*قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ*إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاء الْمُبِينُ*وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ*وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ*سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ*كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ*إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ*وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ*وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ (الصافات:١٠٠-١١٣).

يقول القرآن: ففي هذه الآيات وهذه القصة بيّنتُ للبشرية مدى قبح اتخاذ الأبناء قربانًا، ومدى الفحش والسوء والاستهانة بالإنسان المستخلف المكرّم المؤتمن من أن يُتّخذ قربانًا، فضرب الله بي المثل بإبراهيم وإسماعيل، لم يأمر الله -سبحانه وتعالى- إبراهيم وحيًا بأيّ طريق من طرق الوحي التي سجلتها: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (الشورى:٥١)؛ لأنّه لو حدث ذلك بطريق من هذه الطرق الثلاث لكان أمرًا إلهيًا لإبراهيم أن يقتل ولده، وهذا أمر غير ممكن؛ لأنّ الله لا يأمر بالفحشاء: ﴿قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف:٢٨)، ولكن جاء هذا في منام رءاه إبراهيم، والمنام ليس بوحي بأي طريق من الطرق التي ذُكرت، وليس بمُلزم لا لإبراهيم ولا لولده؛ ولذلك فإنّ إبراهيم قد استشار ولده بتنفيذ الأمر، ولو أنّه أيقن بأنّه مأمور بذلك لما استشار ولما استأذن، فإبراهيم لم يكن ليتردّد أو يستشير أحدًا في تنفيذ ما يعتقد أنّه أمر من الله -تعالى- له، ولكنّه فعل ذلك؛ لأنّ ما رآه لم يكن إلا رؤيا منام؛ ولأنّه أوّاه حليم منيب شديد الحرص على التقرّب إلى الله -تبارك وتعالى- وتنفيذ ما يقرّبه إليه، حتى لو جاء على سبيل الإشارة أو الرؤيا المناميّة، فقد عمل على تصديق الرؤيا، وهذا الذي عمل إبراهيم على تنفيذه وفوّض إسماعيل الأمر إليه فيه لم يأتِ

بطريق من طرق الوحي المعتبرة، ولكن كان الأمر -كلّه- تعليمًا من الله -تعالى- للبشريّة بنموذج عمليّ لتتوب عن تلك الفاحشة، فاحشة اتخاذ قرابين من البشر، وتستبدل ذلك بقرابين من بهيمة الأنعام، تُذبح لله وباسمه وعلى اسمه؛ ولذلك شكر الله -تبارك وتعالى- لإبراهيم وإسماعيل ما فعلا، وأمرهما ببناء البيت وإعداده باعتباره أول بيت لله وضع بين أيدي الناس؛ ليحجوا إليه ويتقرّبوا إلى الله فيه، وبشّر إبراهيمَ بإسحاق نعمة منه -جلّ شأنه- على ذلك الاستعداد -لو أنّ القربان البشريّ كان أمرًا يتقرب به إلى الله تعالى- للتضحية بالولد الوحيد لديه آنذاك؛ ولذلك فإنّ البشرية قد أدركت منذ عهد إبراهيم أنّ القربان البشريّ لا يمكن أن يقوم به مؤمنون مسلمون، ولا يمكن أن يأمر الله -تعالى- به، ولا أن يُتقرب إلى الله به، ولكنّه أمر يوسوس به شياطين الجن والإنس إلى أوليائهم ليُردّوهم، وهكذا حُسم أمر هذه الجريمة البشعة واقتلعت من تاريخ البشريّة ولم تبقَ إلا في بعض زوايا الشرك والمشركين.

ولما كان «التبنِّي» -بكل ما فيه من سيئات وما يترتب عليه من موبقات- عادة متأصّلة لدى البشريّة، وخاصة في جزيرة العرب، وأراد الله -تبارك وتعالى- أن يطهّر البشريّة منها؛ نزلت آياتي على رسول الله محمد -صلّى الله عليه وآله وسلّم- تطالبه بذلك على شدة ذلك على نفسه: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا*مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا*الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا*مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا*يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا*وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا*هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا*تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ (الأحزاب:٣٧-٤٤)، فهذا النوع من الظواهر أو الانحرافات ليس سهلًا على من ألفوها وتوارثوها عن آبائهم وعاشوا فيها دهورًا أن يتخلوا

عنها بمجرد الأمر أو النهي عن الاستمرار فيها، فكان لا بد من استئصالها بطرق تقديم الأسوة والنموذج من أتقى الناس وأطهرهم؛ ألا وهم أنبياء الله تعالى، فنرى في هذه الآيات كيف اقتلع الله -سبحانه وتعالى- هذه المعصية وأخرجها من طريق الناس، فجاء بـــمَنْ قد تبنّاه رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- وصار يُدعى ابن محمد، فلم يكتفِ القرآن بدعوة الناس وأمرهم أن يدعوه باسم أبيه، بل جعل القرآن ذلك مدعومًا بأمر رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- بالزواج من مطلّقة متبنّاه، يقول القرآن: وقد حكيت للناس ما عاناه رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- ومَنْ حوله لإمضاء هذا الأمر الذي كان هو الوسيلة الوحيدة لاقتلاع هذه المعصية، وتطهير المجتمعات منها ومما يترتب عليها؛ لأنّ الله -تبارك وتعالى- الذي أنزلني يعلم أنّ النّفوس البشريّة لا يمكن أن تطيب بتغيير عادات وأعراف درج عليها الآباء والأجداد وتوارثها عنهم الأبناء قرونًا طويلة.

من هنا فإنَّ على قرائي أن يتعلّموا عاداتي وسنني في الخطاب والكليَّات التي أُعنى بها، فذلك عون لهم على تلاوتي حق التلاوة، وتدبُّري حقّ التدبّر. والمتدبّر الواعي يستطيع أن يتابع النماذج المختلفة التي عرضت لها في آياتي وفي سوري المختلفة في مجال تغيير العادات والأعراف والأفكار والمفاهيم والثقافات، وبناء البدائل عنها، وتصحيح المسار، وتجاوز الاعوجاج وما إلى ذلك، والله أعلم.

*** *** *** *** ***

أسماء القرآن العظيم

قد عقد فخر الدين الرازي في تفسيره «مفاتيح الغيب» مسألة مطوّلة[١٢] في أسماء «القرآن»، فقال: "اعلم أنّ أسماء القرآن التي يمكن استنتاجها منه كثيرة جدًّا"، ثم ذكر منها ما يلي:

أولها: «**القرآن**»: ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ (الإسراء:٨٠) ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الزخرف:٣) ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾ (البقرة:١٨٥) ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء:٩)، وللمفسّرين فيه قولان: **أحدهما**: قول ابن عباس: إنَّ القرآن والقراءة واحد، كالخسران والخسارة، والدليل عليه قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (القيامة:١٨)؛ أي: تلاوته؛ أي إذا تلوناه عليك فاتبع تلاوتنا له عليك، **الآخر**: وهو قول قتادة: إنَّه مصدر على وزن فعلان بالضم، كالغفران والشكران والتكلان، بهذا المعنى المصدريّ جاء في آيتي سورة القيامة: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ*فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (القيامة:١٧-١٨)، وفي هذه الحالة يكون المصدر مأخوذًا من قول القائل: "قرأت الماء في الحوض" إذا جمعته، وتقول: قرأته قرءًا وقراءة وقرآنًا؛ أي: تلوته تلاوة. وقال سفيان بن عيينة: "سُمّي القرآن قرانًا لأنَّ الحروف جُمعت فصارت كلمات، والكلمات جُمعت فصارت آيات، والآيات جُمعت فصارت سورًا، والسور جُمعت فصارت قرآنًا، ثم جمع فيه علوم الأولين والآخرين"، فالحاصل أنَّ اشتقاق لفظ «القرآن» إمَّا من التلاوة أو من الجمع، وذلك هو الجمع الإلهيّ له.

وقد صار لفظ «القرآن» لذلك عَلمًا دالًّا على الكتاب الكريم، يُطلق -على سبيل الاشتراك اللفظيّ- على مجموع القرآن، وعلى كل قطعة منه، ورُوعي في تسميته قرانًا كونه متلوًّا مقروءًا، مستقرًا مجتمعًا، لا يعتريه قلق الخطاب المتغيِّر ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ فهو جامع لأنواع الحكم والأحكام في آياته وسوره المجتمعة. وقد عَنَّ لبعض

[١٢] راجع: الرازي، محمد بن عمر بن الحسين. مفاتيح الغيب (القاهرة: المطبعة العامرة الشرفية،د.ت) ج١، كذلك راجع: محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم (دمشق: دار القلم،١٩٩١).

الباحثين أن يُخرج هذا الاسم عن معناه الحقيقيّ إلى المجاز دون قرينة؛ ليجعله دالًّا على بعض القرآن لا على كله[١٣]. ومن المعلوم أنَّه لا يجوز إخراج اللَّفظ عن حقيقته ودلالته المطابقة إلى المجاز ودلالة التضمن أو الالتزام إلا بدليل وقرينة صارفة عن الحقيقة، والقرآن بالنسبة للكتاب الكريم كلفظ الجلالة بالنسبة للبارئ سبحانه وتعالى: اسم خاص بهذا الكتاب المنزل، لا يُشاركه فيه أيُّ كتاب آخر، و لا يجوز إطلاقه على أيّ كتاب آخر، كما لا يجوز إطلاق لفظ الجلالة على غير الله تعالى.

و«القرآن» أشهر أسماء هذا الكتاب السماويّ، ولفظه لفظ مصدر «قرأ» «يقرأ»؛ بمعنى الجمع. وقال البعض: إنّه بمعنى «القرآن» حين يكون مصدره الآخر هو «قرأ» على وزن «فرع».

وقد اختار الراغب في مفرداته «الجمع» معنى له، حيث المقصود من «القرآن» عنده: ضمّ الحروف والكلمات إلى بعضها لتُقرأ بشكل مرتَّل، والراغب يؤيّد مدعاه بقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (القيامة:١٧)، وهو موافق لما تقدّم عن ابن عيينة. ويُنقل عن بعض العلماء قوله: إنَّ علّة تسميته بالقرآن من بين الكتب السماويَّة هي أنّه جامع لما تفرّق في الكتب السماويَّة كلّها، بل إنَّه جامع لجميع العلوم. والآيات التي تتضمّن كلمة «القرآن» اسمًا لهذا الكتاب السماويّ كثيرة مبثوثة في أرجاء القرآن كلّه؛ ولأنّ المقصود فيها جميعًا هو القرآن الكريم المعهود الذي لا خلاف فيه لم نرَ حاجة لسرد تلك الآيات هنا.

وثانيها: «**الكتاب**»: وهو مصدر أو اسم مصدر من «كتب» «يكتب» «كتْبًا»، كالقيام والصيام، وقيل: فِعال بمعنى مفعول كاللباس، بمعنى الملبوس، واتفَّقوا على أنَّ المراد من «الكتاب» «القرآن»، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ (ص:٢٩) و«الكتاب» جاء في القرآن على وجوه من المعاني؛ **أحدها**: الفرض: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ﴾ (البقرة:١٧٨)، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ﴾ (البقرة:١٨٣)، ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ (النساء:١٠٣). **وثانيها**: الأجل: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ (الحجر:٤)؛ أي: أجل. وثالثها: بمعنى «مكاتبة السيد عبده»:

[١٣] راجع :محمد شحرور، الكتاب والقرآن (دمشق: الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت).

﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ (النور:٣٣)، وهذا المصدر «فعال» بمعنى «المفاعلة» كالجدال والخصام والقتال بمعنى المجادلة والمخاصمة والمقاتلة. واشتقاق «الكتاب» من «كتبت الشيء» إذا جمعته، وسُمّيت «الكتيبة» كتيبة لاجتماعها، فسُمّي «الكتاب» كتابًا؛ لأنّه كالكتيبة في كرِّها على عساكر الشبهات، أو لأنّه اجتمع فيه جميع أصول العلوم، أو لأنّ الله -تعالى- كتب التكاليف فيه على الخلق.

وقد رُوعي في تسميته «كتابًا» كونه مما يُكتب ويدوَّن بالأقلام، كما سُمّي قرآنًا لأنَّه مما يُقرأ؛ فهو مقروء مكتوب، محفوظ «نصًّا ولفظًا» بالوسيلتين الأساسيّتين لحفظ الوثائق ذات الأهميّة الكبرى والخطورة الشديدة، فهو محفوظ في الصدور والسطور، وهما أهمّ وسيلتين عرفتهما البشريَّة لتوثيق وحفظ ما يُهمّها، فيجب حفظه في الصدور والسطور جميعًا: ﴿أَن تَضِلَّ إْحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى﴾ (البقرة:٢٨٢)، فلا ثقة بحفظ حافظ حتى يوافق الرّسم المجمع عليه من الأصحاب، المنقول إلينا جيلًا بعد جيل، على هيئته التي وُضع عليها أول مرّة، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفّاظ بالإسناد الصحيح المتواتر المفيد للقطع[١٤]. وبهذه العناية المزدوجة، وبطبيعة نظمه وأسلوبه وإعجازه -وكلّها من وسائل الحفظ الداخليّ له- تحقّق الوعد الإلهيّ بحفظه[١٥]: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩)، وبقي خطابًا إلهيًّا محفوظًا كما أُنزل، متجاوزًا، متعاليًا، مترّهًا عن كل ما أصاب الكتب السماويّة الأخرى من تحريف وانقطاع سند؛ لأنّ حفظها أُوكل إلى البشر، قال تعالى: ﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ (المائدة:٤٤)، وربَّما كان الأمر كذلك؛ لأنَّ تلك الكتب خطاب خاص بأقوام محدَّدين معيَّنين، في زمان معيَّن، ونطاق جغرافيّ محدّد، أو لأيّ سبب آخر يعلمه الله تعالى.

وإذا كانت «القراءة» تفيد -فيما تفيده- ضمّ الألفاظ بعضها إلى بعض نطقًا، و«الكتابة» ضمّ بعضها إلى بعض في الخط والرسم، فذلك يعني أنّ الاسمين «القرآن»

---

[١٤] راجع: دراز، محمد عبد الله.

[١٥] ولا نعني بذلك أن صحة القرآن الكريم تتوقف على الرواية حيث إن الله -تبارك وتعالى- قد حفظه بنظمه وأسلوبه وفصاحته وبلاغته وتحديه وإعجازه، فالرواية أمر ثانوي بالنسبة للقرآن المجيد وحفظه وليست أمرا أساسيا. كما ينبغي أن تأخذ الرواية بالنسبة للقرآن الكريم شروط الشهادة التي توثق بها الأمور العامة المشتركة بين البشر بكل دقائقها، فهي ليست كرواية الوقائع التاريخية وما إليها. ولدينا تحفظ ذكرناه في مواضع كثيرة من كتاباتنا على مبدأ تحكيم الرواية في بعض آيات القرآن الكريم التي نجمت عنها بعض السلبيات مثل القول بوجود القراءات الشاذة.

و«الكتاب» قد لوحظ في كل منهما وصف الجمع، إمّا على معنى اسم الفاعل أو اسم المفعول، فيكون معناه «الجامع» أو «المجموع»، وهذا لا يعني فقط أنَّ هذا المسمى جامع للسور والآيات، أو أنَّه مجموع تلك السور والآيات من حيث كونه نصوصًا مؤلَّفة ومجموعة على صفحات القلوب، أو من حيث هو نقوش مصفوفة في الصحف والألواح، أو من حيث هو أصوات مرتَّلة منظومة على الألسنة، بل يعني شيئًا أدقّ من ذلك كلّه، وهو أنّ هذا «البيان القرآنيّ» قد جمع فنون المعاني والحقائق، وأنّه حشدت فيه كتائب الحكم والأحكام، فإذا قلت: «القرآن» أو «الكتاب» فكأنَّك قلت: الكلام الجامع للعلوم، أو العلوم الإلهيَّة المجموعة في كتاب؛ ولذلك وصفه الله -جلّ شأنه- بأنّه تبيان لكل شيء: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل:٨٩)، كما وصفه رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلَّم- بأنّه المخرج من الفتن، كما في حديث الترمذي عن علي[١٦].

أمّا عن الآيات التي أطلق اسم «الكتاب» فيها على القرآن هي:

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة:٢).

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ (البقرة:٨٩).

﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ (البقرة:١٠١).
﴿وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ (البقرة:١٢٩).

﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (البقرة:١٥١).

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ (آل عمران:٣).

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (آل عمران:٧).

﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (آل عمران:١٦٤).

---

[١٦] الحديث بتمامه أخرجه الترمذي عن علي بن أبي طالب. وراجعه في جامعه، كما خرجناه في الحلقة الثانية من سلسلة "دراسات قرآنيَّة" التي أخرجنا منها حلقات خمسة لحد الآن وهي بعنوان: الجمع بين القراءتين.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ (النساء:١٠٥).

﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (النساء:١١٣).

﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ﴾ (النساء:١٣٦).

﴿كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنْ الْكِتَابِ﴾ (المائدة:١٥).

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا﴾ (المائدة:٤٨).

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ (الأنعام:٢٠).

﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام:٣٨).

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ (الأنعام:٩٢).

﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ (الأعراف:٢).

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً﴾ (الأعراف:٥٢).

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (يونس:١).

﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ (هود:١).

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (يوسف:١).

﴿المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ (الرعد:١).

﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (إبراهيم:١).

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ (الحجر:١).

﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمْ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ (النحل:٦٤).

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ (الكهف:١).

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ (الكهف:٢٧).

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾ (مريم:٥٦،٥٤،٥١،٤١،١٦).

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ (الأنبياء:١٠).

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (الشعراء:٢).

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (النمل:١).

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (القصص:٢).

﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ وَأَقِمْ الصَّلَاةَ﴾ (العنكبوت:٤٥).

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ (العنكبوت:٤٧).

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (لقمان:٢).

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (السجدة:٢).

﴿أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ (الأحزاب:٦).

﴿الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ (فاطر:٢٩).

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ (ص:٢٩).

﴿أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ (فاطر:٣٢).

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (الزمر:٢).

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ (الزمر:٢٣).

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (غافر:٢).

﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ (فصلت:٣).

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ﴾ (الشورى:١٤).

﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (الزخرف:٢).

﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (الدخان:٢).

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (الجاثية:٢).

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (الأحقاف:٢).

﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾ (الطور:٢).

﴿وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (الجمعة:٢).

كانت هذه هي الآيات التي استعمل فيها لفظ «الكتاب» في القرآن بخصوصه، وطبيعيّ أنَّ في بعض هذه الآيات استعمل لفظ «الكتاب» باعتباره اسم علم استعمل في القرآن وفي الكتب السماويّة السابقة، مما لم نرَ حاجة لذكرها، مثل آية: ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد:٢٥)، فهي شاملة لكل ما أنزل من «كتب» على الرسل، فليست دالّة على القرآن بخصوصه.

وإطلاق «الكتاب» على القرآن -كما يقول الراغب- من جهة أنَّ الأصل في «الكتاب» أنّه مجموعة من الخطوط والكتابات، ولكنّه يُستعمل بشكل الاستعارة لمجموعة الفصول والجمل والكلمات المترابطة؛ لذا فإنَّ «الكتاب» في مثل: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة:٢) وأمثالها يُستعمل بهذا المعنى؛ أي مجموعة السور والآيات التي نزلت على الرسول الأعظم -صلى الله عليه وآله وسلّم- وانتقلت عبر الأذهان والصدور أو الأوراق ولحاء الشجر من جيل إلى جيل حتى وصلتنا نحن متواترة قطعيّة الثبوت.

وثالثها: «**الفرقان**»: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان:١)، ﴿وَبَيِّنَاتٍ مِنْ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ (البقرة:١٨٥)، واختلفوا في تفسيره؛ فقيل: سُمّي بذلك لأنَّ نزوله كان متفرّقًا، أنزله -سبحانه وتعالى- في اثنتين وعشرين سنة وخمسة أشهر واثنين وعشرين يومًا كما مر، ودليله قوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾ (الإسراء:١٠٦)، ونزلت سائر الكتب جملة واحدة، ووجه الحكمة فيه ذُكِرَ في سورة الفرقان في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ (الفرقان:٣٢)، وقيل: سُمّي بذلك لأنّه: "يفرق بين الحق والباطل، والحلال والحرام، والطيّب والخبيث، والخير والشر، والحسن والقبيح"، وقيل: "الفرقان هو النجاة"، وهو قول عكرمة والسديّ؛ وذلك لأنَّ الخلق في ظلمات الضلالات، فبالقرآن وجدوا النجاة، وعليه حمل المفسرون قوله: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (البقرة:٥٣).

وهو مصدر من «فرق» «يفرق» «فرقًا»، بمعنى الانفصال، و«الفرقان» عبارة عن كل شيء يؤدي لفرق شيء عن آخر، أو لتمييز الحق من الباطل، فقد أطلق عليه لفظ «الفرقان»، ومعروف أنّ هذه الكلمة ليست من الأسماء المختصّة بالقرآن؛ لأنّها أطلقت على التوراة أيضًا: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ (الأنبياء:٤٨).

والآيات التي استعمل فيها هذا اللفظ، هي:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنْ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ (البقرة:١٨٥).

﴿مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ (آل عمران:٤).

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ (الفرقان:١).

وعندي أنّ أهم ما يُوحي به اسم «الفرقان» أنّ هذا القرآن فرقان فرَّق الله به بين الحق والباطل، والخير والشر، والإسلام والجاهليّة، فهو فرقان بهذا المعنى، شامل للسعادة والشقاء

والهداية والضلال، والعلم والجهل، وسائر هذه الثنائيّات التي عرفتها البشريَّة قديمًا وحديثًا، ففي القرآن المجيد سبيل الهداية لبيان الفرق بينها، وتمكين الإنسان من التمييز الصحيح بينها، بحيث لا تلتبس عليه ولا تختلط.

ورابعها: «**الذكر**»، و«التذكرة»، و«الذكرى»: أمّا «الذكر» فقد ورد في قوله تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ (الأنبياء:٥٠)، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩)، ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (الزخرف:٤٤)، وفيه وجهان؛ **أحدهما**: أنَّه ذكر من الله -تعالى- ذكّر به عباده فعرَّفهم تكاليفه وأوامره. **والآخر**: أنّه ذكر وشرف وفخر لمن آمن به، وأنّه شرف لمحمد -صلّى الله عليه وآله وسلّم- وأمَّته، وهو ذكر يذكّر أهل الكتاب ما نسوا من كتبهم وما أخفوا وما حرَّفوا منها.

وأمّا «التذكرة» فقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الحاقة:٤٨)، وأمّا «الذّكرى»، فقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الذاريات:٥٥)، قلت: هو ذكر ومذكر برسالات الأنبياء -كلّها- وبالمقاصد التي حملوها وجاؤا أقوامهم بها، فهو ذكر يذكر الأميِّين بالذكر السابق الذي رفض بنو إسرائيل إيصاله إليهم إذ قالوا: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ (آل عمران:٧٥)، وبالذكر اللاحق الذي نزل عليه: ﴿هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِي وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي﴾ (الأنبياء:٢٤)، فهو ذكر ومذكر بسائر المعاني المذكورة، ومذكّر للإنسانيّة -كلّها- بالعهد مع الله، وقبول الأمانة، وحمل مهمّة الاستخلاف، والتعرّض للابتلاء؛ ولذلك جاء مُنَكَّرًا ومعرَّفًا.

ويقول الراغب في مفرداته: «الذكر» تارة يُقال ويُراد به: هيئة للنفس بها يُمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة، وهو كالحفظ، إلا أنَّ الحفظ يُقال اعتبارًا بإحرازه، و«الذكر» يُقال اعتبارًا باستحضاره، وتارةً يُقال لحضور الشيء في القلب، أو حضوره بالقول؛ ولذلك قيل: "الذِّكر ذِكْران؛ ذِكْر بالقلب، وذِكْر باللسان"؛ ولأنَّ القرآن يوجب التذكّر والرجوع إلى الذات، فقد سُمّي بـــ«ـــالذكر»، والآيات التي تضمّنت هذه الاسم بهذا المعنى هي:

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنْ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ (آل عمران:٥٨).

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (الأعراف:٦٣) (ص:٦٩).

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (يوسف:١٠٤).

﴿وَقَالُوا يَاأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ (الحجر:٦).

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩).

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ (النحل:٤٤).

﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ (طه:٩٩).

﴿هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِي وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي﴾ (الأنبياء:٢٤).

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ الرَّحْمَانِ مُحْدَثٍ﴾ (الشعراء:٥).

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ (يس:١١).

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ (يس:٦٩).

﴿فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ (الصافات:٣).

﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ (ص:١).

﴿أَءنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ (ص:٨).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ (فصلت:٤١).

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ﴾ (الزخرف:٥).

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (الزخرف:٤٤).

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ (القمر:٤٠،٣٢،٢٢،١٧).

﴿قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ (الطلاق:١٠).

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (القلم:٥١).

وقد استُعملت كلمة «ذكرى» في بعض الآيات، وهي:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام:٩٠).

﴿لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف:١٢٠،١١،٢).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (العنكبوت:٥١).

كما استُعملت لفظة «تذكرة» في آيات أخرى، هي:

﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ (طه:٣).

﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الحاقة:٤٨).

﴿فَمَا لَهُمْ عَنْ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ (المدثر:٤٩).

﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾ (المدثر:٥٤).

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ (الإنسان:٢٩).

﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ (عبس:١١).

وخامسها: «**التنـــزيل**»: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء:١٩٢)، فكأنَّه قال لهم: إنَّه تنـــزيل، ولكن لم تتنزَّل به الشياطين، وما كان لهم، وما يستطيعون، لكنَّه تنزيل ربّ العالمين، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون يا محمد من المنذرين: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ*نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ*عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنذِرِينَ﴾ (الشعراء:١٩٢-١٩٤).

وهي إحدى الأسماء والصفات التي أُطلقت على القرآن، وهي مصدر «نـــزل»، وفي مجال نزول القرآن جاء اللفظ تارةً من باب الأفعال، مثل: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (القدر:١)، وأخرى من باب التفعيل، ويقول الراغب في توضيح الفرق بينهما: "والفرق بين «الإنزال» و«التنزيل» في وصف القرآن والملائكة أنَّ «التنزيل» يختص بالموضع الذي يُشير إليه مفرَّقًا ومرة بعد أخرى، و«الإنزال» عام"؛ والمقصود هو أنَّ التنزيل يعني النزول التدريجيّ للقرآن، خلافًا للإنزال الذي لا يدلّ على نوع النزول؛ أهو دفعيٌّ أم تدريجيٌّ، وقد جعل المنجد «التنزُّل» من باب التفعيل، بمعنى النزول التدريجيّ، وقد جاء «التنزيل» بمعنى الترتيب والتنظيم[١٧]، والآيات التي جاءت فيها كلمة «التنزيل» في مجال القرآن هي:

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (غافر: ٢).

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء:١٩٢).

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (السجدة:٢).

﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (يس:٥).

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (الزمر:١) (الجاثية:٢) (الأحقاف:٢).

﴿تَنزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا﴾ (طه:٤).

﴿تَنزِيلٌ مِنْ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ﴾ (فصلت:٢).

﴿تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت:٤٢).

﴿تَنزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الحاقة:٤٣).

كما جاء في بعض الآيات بشكل المفعول المطلق: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ (الإنسان:٢٣).

---

[١٧] راجع كتابنا: "إشكاليَّة المحكم والمتشابه" من سلسلة "دراسات قرآنيَّة".

وعندي أن استعمال «الإنزال» و«التنزيل» فيه تنبيه على سموّ وعلوّ وشرف القرآن الكريم، بحيث نُـــزِّل تنزيلا؛ ليتيسّر لبني آدم الاهتداء به بقطع النظر عن «النزول» و«الإنزال»، فهو ذو قدر عال وشرف رفيع يجعل مجرد «إنزاله» أو «تنزيله» إلى أهل الأرض نعمة كبرى على العبد أن يُدركها ويشكرها، ويرى مدى نعمة الله أو إنعام الله عليه فيها، وفيها توكيد أيضًا على أنَّه لا علاقة للأرض وأهلها بإنزال هذا الكتاب؛ لأنَّه منزّل تنزيلًا، فهو لا يتّصل بالأرض من حيث مصدره ومَنْ صدر عنه، فالأرض ومَنْ عليها في موضع التلقّي لهذا القرآن لا في موضع الإنشاء له والتأليف، و«الإنزال» و«التنزيل» يُشيران إلى تكذيب أهل الشرك في كل ما ذكروه من قولهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ (النحل:١٠٣)، أو أنّه: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ (الشعراء:٢١٠)، فهو تنزيل من الله العزيز الحكيم لهداية الإنسان وإعانته على سلوك السبيل القويم، والله أعلم.

وسادسها: «**الحديث**»: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا﴾ (الزمر:٢٣)، سمّاه حديثًا[١٨]؛ لأنّ وصوله إليك حديث؛ ولأنَّه تعالى شبَّهه بما يُتَحدَّث به، فإنَّ الله خاطب به المكلّفين لكي يألفوه ويتعاملوا معه، ولا يلبّس عليهم الشيطان فيصرفهم عنه بحجة ارتفاعه عن مستواهم، أو لوجود الفجوة الواسعة بين المتكلم به -سبحانه- والمخاطب به. فهذه التسمية تتضمن معنى الحضّ والحثّ على تلاوته وعدم الانشغال بأيّ حديث غيره. كما ورد من غير ألف ولا لام، وورد بصيغة الموصوف والمضاف إليه، نحو:

﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ (يوسف:١١١).

﴿إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف:٦).

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ (الزمر:٢٣).

﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ (النجم:٥٩).

﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾ (الواقعة:٨١).

---

[١٨] يراجع للاطلاع على مزيد مما ورد في معنى "حديث" كتابنا: "إشكالية المحكم والمتشابه" من سلسلة "دراسات قرآنيّة". [[بيانات ببلوجرافية كاملة]]

﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ (القلم:٤٤).

وفي بعض الآيات جاء التحدّي للمنكرين أن يقدروا على الإتيان بمثل هذا الحديث أو الخوض في حديث غيره، وهي:

﴿حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ (النساء:١٤٠).

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف:١٨٥).

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (الجاثية:٦).

﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (الطور:٣٤).

و«أحسن الحديث» بمعنى أحسن الكلام، وأحسن الخبر، وأيُّ حديث يمكن أن يضم بين جوانحه ما تضم آيات هذا الكتاب الكريم! وكما يقول الراغب فهو عبارة عن كل كلام يصل إلى الإنسان بالسمع أو بطريق الوحي، في النوم أو اليقظة؛ ولأنَّ القرآن وصل بالوحي إلى رسول الإسلام فقد أُطلق عليه لفظ «حديث» أو «أحسن الحديث».

وسابعها: «**الموعظة**»: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (يونس:٥٧)، وهو في الحقيقة موعظة؛ لأنَّ القائل هو الله تعالى، والآخذ جبريل، والمستلم محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم، فكيف لا تقع به الموعظة، واستيعاب الدروس من رسالات الأنبياء كافَّة، ووقائع تاريخهم مع أقوامهم، وكون العاقبة لهم؟!

و«موعظة» من «وعظ» «يعظ» «وعظًا»؛ بمعنى النّصيحة بالنحو الذي يؤدي إلى إصلاح الإنسان، وجمعها «مواعظ»، ولأنَّ القرآن نصيحة للناس تؤدي إلى الاتعاظ إذا وجد الاستعداد له فقد أُطلقت عليه كلمة «موعظة»، وقد جاء هذا الاسم في آيات خمس:

﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران:١٣٨).

﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة:٤٦).

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (يونس:٥٧).

﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (هود:١٢٠).

﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ (النور:٣٤).

وثامنها: «الحكم»، و«الحكمة»، و«الحكيم»، و«المحكم»؛ أما «الحكم» فقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ (الرعد:٣٧)، وأمّا «الحكمة» فقوله: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ (القمر:٥)، ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ (الأحزاب:٣٤)، وأمّا «الحكيم» فقوله تعالى: ﴿يس*وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ (يس:١-٢)، وأمّا «المحكم» فقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ (هود:١)، واختلفوا في معنى «الحكمة»؛ فقال الخليل: هو مأخوذ من «الإحكام» بمعنى الإلزام، وقال المؤرخ: هو مأخوذ من «حَكَمة» اللِّجام، لأنَّها تضبط الدابَّة، و«الحكمة» تمنع من السّفه، وفيه معنى انتقال «الحاكميَّة» للكتاب.

وقد جاء لفظ «الحكم» بمعانٍ عدّة، منها: فصل النـــزاع، والحكم، وتدبير الأمور السياسيَّة، والرجوع، وصيرورة الشخص حكيمًا، وقد جـــاء في القرآن في موضع واحد، وهو: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ (الرعد:٣٧).

ومن الأهداف الأخرى للقرآن والكتب السماويّة الأخرى الحكم بين الناس، وهو ما بُيِّن بصراحة في آيات كثيرة، مثل:

﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمْ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ (البقرة:٢١٣).

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ (النساء:١٠٥).

وفي بعض الآيات ذُكرت كلمة «حكيم» صفة للقرآن، وهي:

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنْ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ (آل عمران:٥٨).

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ (يونس:١).

﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ (يس:٢).

ويمكن أن يكون المقصود من «الحكيم» هنا أنَّ القرآن يتضمن «الحكمة»، وهي عبارة عن العلم الذي يحفظ الإنسان من الأعمال القبيحة، وقد أُطلقت كلمة «الحكمة» في موقع واحد وهو: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ (القمر:٥)، ويمكن أن يكون المقصود هو «المحكم»؛ أي أنّ القرآن منظَّم ومتقن في كل ما فيه، وطبيعيٌّ أنّ الاحتمال الثاني يبدو أقوى، وذلك لأنّه جاء فعل هذه الصيغة من باب الأفعال، بمعنى الإتقان في آيات، وهن:

﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود:١).

﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ (الحج:٥٢).

﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ﴾ (محمد:٢٠).

و«الحكيم» هو إحدى صفات الله التي تعني الإتقان في الأمور ووضع كل شيء في موضعه المناسب له، فأفعاله تعالى تتحقق على أساس النظام والترتيب والإتقان، ولما كان القرآن نازلًا من عند الحكيم فهو محكم ومتقن بدوره، ويمكن أن يكون شاهد هذا المعنى الآيات التي تنسب نزول القرآن إلى الله المتّصف بأنّه حكيم، من مثل:

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ (النمل:٦).

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (الزمر:١).

﴿تَنزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت:٤٢).

وتاسعها: «**الشفاء**»: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنْ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء:٨٢)، وقوله: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ (يونس:٥٧)، وفيه وجهان؛ **أولهما**: أنَّه شفاء من الأمراض عامَّة. **والثاني**: أنَّه شفاء من مرض الكفر والشك والشرك؛ لأنَّه -تعالى- وصف الكفر والشك بالمرض، فقال: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمْ اللَّهُ مَرَضًا﴾ (البقرة:١٠)، وبالقرآن يزول كل شك عن القلب، ويطمئن ببرد

اليقين ويطمئن بتوحيد الله تعالى، فيصبح وصف القرآن بأنَّه شفاء لما في الصدور وأنَّه شفاء من تلك الأمراض كلّها.

«فالشفاء» بمعنى البرء من المرض؛ ولأنَّ القرآن وسيلة للشفاء من الأمراض الأخلاقيّة والنفسيَّة فقد أُطلقت عليه هذه الكلمة، والقرآن قد يشفي من الأمراض العضويّة والجسديَّة، فهو قرآن تقشعرّ منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، والجلود مراكز الإحساس في الإنسان؛ ولذلك قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ الْعَذَابَ﴾ (النساء:٥٦).

والآيات التي جاءت في ذلك هي:

﴿ياأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:٥٧).

﴿وَنُنَزِّلُ مِنْ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء:٨٢).

﴿هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ (فصلت:٤٤).

وعاشرها: «**الهدى**»: فهو هدى في ذاته، وهو «الهادي» لمن يريد أن يهتدي به؛ أمّا كونه «هدى» في ذاته فلقوله: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة:٢)، ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ (البقرة:١٨٥)، ﴿ياأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:٥٧)، وأمَّا كونه «الهادي» لـــمَنْ يريد الإقتداء به: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء:٩)، وقالت الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا*يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ (الجن:١،٢)، وسنذكر «الهادي» لاحقًا باعتباره من الأسماء المشتركة التي تُطلق على الله – تعالى– وعلى القرآن وعلى رسول الله –صلّى الله عليه وآله وسلّم– وكثيرًا ما استعمل بصيغة النكرة –هدى– ليُفيد العموم في سياقه، فالقرآن –بكل ما فيه– هدى، وهذه الكلمة استعملت تارة اسمًا للقرآن وأخرى صفة له، ومعنى «الهدى» واضح، ووجه تسمية القرآن به واضح أيضًا، والآيات الواردة بهذا المعنى هي:

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة:٢).

﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة:٩٧).

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾ (البقرة:١٨٥).

﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران:١٣٨).

﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ (الأنعام:١٥٧).

﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف:٢٠٣).

﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (يوسف:١١١).

﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (النمل:٢).

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾ (لقمان:٣).

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ (فصلت:٤٤).

﴿هَذَا هُدًى﴾ (الجاثية:١١).

﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (الجاثية:٢٠).

الحادي عشر: «**الصراط المستقيم**»: أُثر عن ابن عباس في تفسيره: إنَّه القرآن، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ (الأنعام:١٥٣)، فالقرآن يجعل المتمسِّك به سالكاً الصراط المستقيم، وسائرًا على النّهج القويم بيقين، وإذا كان صراطًا مستقيمًا كله وحقًّا كلّه، فماذا بعد الحقّ إلا الضلال؟ فيكون في هذه التسمية تحذير ضمنيٌّ من سلوك أيّ سبيل آخر غير سلوك القرآن، أو محاولة الاهتداء بأيّ كتاب غيره، أو منهج جاء في سواه؛ ولذلك كان هذا القرآن صراطًا مستقيمًا، يُخرج من الفتن، ويُقلّل من دواعي الاختلاف، ويعزّز القيم ويهدي

للتي هي أقوم، وأيّ صراط آخر غير صراطه -إن لم يكن معوجًّا- فإنّه لا يُتوقّع منه أن يأخذ بأيدي الإنسان إلى الاستقامة على الطريقة.

والثاني عشر: «**حبل الله**»: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران:٣)، ذكر المشتغلون في التفسير أنَّه القرآن، وإنَّما سُمي به لأنّ المعتصم به في أمور دينه يتخلّص به من عقوبة الآخرة والسقوط في جهنم ونكال الدنيا، كما أنّ المتمسك بحبل النجاة ينجو من الغرق والمهالك، والجماعة المتمسّكة لا تتفرّق، ولا ينفرط عقدها؛ ولذلك سمّاه النّبي -صلّى الله عليه وآله وسلّم- عصمة، فقال: "إنّ هذا القرآن عصمة لـــمَنْ اعتصم به"[١٩]؛ لأنَّه يعصم النّاس من المعاصي، ومن أمراض الصدور والقلوب والعقول، ومن كل ما يفرّق كلمتهم، أو يُشتّت جمعهم، أو يؤدي إلى إضلالهم.

الثالث عشر: «**الرحمة**»: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنْ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء:٨٢)، وأيّ رحمة فوق التخليص من الجهالات والضلالات؟ ثم إنّ اتباع هدي القرآن والتمسُّك به يستمطر رحمات الله وبركاته على أولئك المتمسّكين به في الدنيا وفي الآخرة، فهو رحمة في الدارين. و«الرحمة» بمعنى الرقة والعطف الذي يتبعه البذل والإحسان، ورحمة الله:

---

[١٩] إن هذا القرآن مأدبة الله فتعلموا مأدبته ما استطعتم وإن هذا القرآن هو حبل الله وهو النور المبين والشفاء النافع عصمة من تمسك به ونجاة من تبعه لا يعوج فيقوم ولا يزيغ فيستعتب ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات أما إني لا أقول ب { الم } حرف ولكن بالألف عشرا وباللام عشرا وبالميم عشرا.

الراوي: عبدالله بن مسعود المحدث: الألباني - المصدر: السلسلة الصحيحة - الصفحة أو الرقم: ٢٦٤/٢

خلاصة حكم المحدث: إسناده لا بأس به في المتابعات رجاله كلهم ثقات رجال مسلم غير الهجري واسمه إبراهيم بن مسلم وهو لين الحديث

وقد ورد بمثل هذه الألفاظ أو قريب منها عند ابن حبان- المصدر: المجروحين - الصفحة أو الرقم: ٩٤/١، والمنذري - المصدر: الترغيب والترهيب - الصفحة أو الرقم: ٣٠٢/٢، وابن كثير - المصدر: فضائل القرآن - الصفحة أو الرقم: ٤٦، والهيثمي - المصدر: مجمع الزوائد - الصفحة أو الرقم: ١٦٦/٧،وابن حجر العسقلاني - المصدر: الكافي الشاف - الصفحة أو الرقم: ٥٣، والألباني - المصدر: ضعيف الترغيب - الصفحة أو الرقم: ٨٦٧، والألباني - المصدر: السلسلة الضعيفة - الصفحة أو الرقم: ٦٨٤٢. ومع ما ذكرنا من معايب في أسانيده لكن معانيه كلها صحيحة بشكل ملموس في كتاب الله.

إنعامه وبذله للعباد الذين يستحقون ذلك؛ لأنَّ فيض الله جار دائمًا، ورحمته جارية، ويبقى أن تتوافر القابليّة في الشخص والشيء حتى تناله الرحمة، والرحمة في مورد القرآن بهذا المعنى، فهو نبع متدفق دائمًا لهداية الإنسان وسعادته، إذا توافر الاستعداد والقابليّة والاستحقاق في الناس ليستفيدوا من هذا النبع المتدفّق، والآيات التي وردت فيها هذه الكلمة وقصد منها القرآن نفسه هي:

﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ (الأنعام:١٥٧).

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف:٥٢).

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل:٨٩).

﴿وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (النمل:٧٧).

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾ (لقمان:٣).

﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (الجاثية:٢٠).

الرابع عشر: «**الرّوح**»: وهو بمعنى الوحي الإلهيّ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ (الشورى:٥٢)، ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ (النحل:٢)، وقوله تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ (غافر:١٥)، وإنّما سُمي به لأنَّه سبب لحياة الأرواح، ولأنَّ مَنْ حُرموا هدايته كأنَّهم خشب مسنَّدة، وكأنّهم أجساد بلا أرواح. وسُمِّي جبريل بالروح: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ (مريم:١٧)، كما سُمِّي المسيح عيسى ابن مريم بالروح: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ (النساء:١٧١)؛ أي: روح للذين يؤمنون به من بني إسرائيل بعد أن قست قلوبهم وجفّت ينابيع أرواحهم.

وأُطلقت «روح» بصيغة النكرة في موقع واحد على القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ (الشورى:٥٢)، وكذلك بصيغة «الروح» معرفة: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ (غافر:١٥).

الخامس عشر: «**أحسن القصص**»: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ (يوسف:٣)، سُمِّي القرآن به لأنَّه يجب اتباعه، ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ (القصص:١١)؛ أي: اتَّبعي أثره؛ أو لأنَّ القرآن يتتبّع قصص المتقدّمين ويُصدّق عليها، ويُهيمن، ويُذكّر بها، جعل عبرها ودروسها متاحة للبشريّة إلى يوم الدين، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ (آل عمران:٦٢).

السادس عشر: «**البيان**»، و«**التبيان**»، و«**المبين**»: أمّا «البيان» ففي قوله: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران:١٣٨)، و«التبيان» فهو قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل:٨٩)، وأمّا «المبين» فقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (يوسف:١)، وفي هذا نفي للغموض أو الإبهام أو الاشتباه، فالقرآن من خواصّه أنّه يُبيّن بعضه بعضًا، كما يُبيّن ما سبقه من كتب، ويُبيّن للناس وجه الصواب فيما وقع وسيقع من نوازل. وهي من «بان» «يبين» «بينًا» و«تبيانًا»؛ بمعنى صيرورته واضحًا، و«البيِّنة» مؤنث «بيّن»، وجمعها «بيّنات»، وتعني الدليل والحجّة الواضحة. ولأنَّ القرآن هو المعجزة التي تحدّى بها رسول الله الإنس والجن -لإثبات كونه رسولًا وكون رسالته حقًّا- فقد تم إطلاق هذه الكلمة ومشتقاتها على القرآن كثيرًا، تارةً بنحو الاسم وأخرى بنحو الصفة: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ (الأنعام:٥٧)، يؤيد كون المراد بلفظ «بيّنة» هنا القرآن قوله: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ (الأنعام:١٥٧)، واستعملت بصيغة الجمع في آيات أخرى:

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ (البقرة:٩٩).

﴿أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنْ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ (البقرة:١٨٥).

﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ (يونس:١٥).

﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ (الحج:١٦).

﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ (النور:١).

﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ (العنكبوت:٤٩).

﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ (الحديد:٩).

﴿وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ (المجادلة:٥).

وجاء بصيغة «مبيّنات» في بعض الآيات؛ لأنّ آيات القرآن «بيّنات» واضحة في نفسها، و«مبيّنات» وموضحات لسواها:

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ (النور:٣٤).

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ (النور:٤٦).

﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ (الطلاق:١١).

ومن الجدير بالذكر هنا أنَّ كلمة «الآية» و«الآيات» لكونها استعملت من جهة في القرآن، كما استعملت في معجزات الرسول -صلّى الله عليه وآله وسلّم- وباقي الأنبياء، كما استعملت في الآيات الكونيَّة، كما أنّها لم تُطلق لتعّبر عن اسم أو صفة خاصّة مستقلة للقرآن، إضافة لكثرة ورودها، فإنّا لم نذكرها كلّها هنا؛ لتدبّرها ومعرفة سياقاتها، وقد ذكرت صفة «مبين» للقرآن في بعض الآيات:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ (النساء:١٧٤).

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (المائدة:١٥).

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (يوسف:١) (الشعراء:٢) (القصص:٢).

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ (الحجر:١).

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (النمل:١).

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ (يس:٦٩).

وهناك كلمات أخرى من مشتقات هذه الكلمة استعملت في وصف القرآن، وهي:

«بيان»: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٨).

و«تبيان»: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ (النحل:٨٩).

السابع عشر: «**البصائر**»: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (الأنعام:١٠٤)؛ أي: هي أدلة يُبصر بها الحق بالقلوب، تشبيهًا بالبصر الذي يرى طريق الخلاص، فإذا احتوى وجه الإنسان على «بصر» فإنّ قلبه يحتوي على «بصيرة». وجمعها «بصائر»: وفعله «بصُر»، «يبصر» «بصرًا» و«بصارة»؛ بمعنى حصول الوعي والعلم بشيء مَّا. و«البصيرة» بمعنى العقل والدراية، وكذلك جاءت بمعنى العبرة، وبمعنى البيّنة والهادي الذي يمكن بواسطته رؤية الشيء على ما هو عليه، وهي بهذا المعنى في القرآن، ذلك أنَّ القرآن ضياء يمكن بواسطته رؤية الحقائق وإدراكها، وكونها بحالة الجمع في القرآن إنّما هو لأجل أنّ كل سورة وآية منه بيّنة وهادٍ، فللقرآن دلائل واضحة وبراهين ساطعة تحدّد سُبل الحقّ وتميّزها عن سُبل الباطل، وقد جاء في هذا المعنى ما يلي:

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (الأنعام:١٠٤).

﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف:٢٠٣).

﴿ما أَنزَلَ هَؤُلَاء إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ (الإسراء:١٠٢).

﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ (القصص:٤٣).

﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (الجاثية:٢٠).

وللفيروزآبادي -صاحب القاموس المحيط- كتاب مطبوع في مجلدات ستة، عنوانه «**بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**».

الثامن عشر: «**القول الفصل**»: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ (الطارق:١٣)، واختلفوا فيه؛ فقيل: معناه القضاء؛ لأنَّ الله -تعالى- يقضي به بين الناس بالحق، قيل: لأنَّه يفصل بين الناس يوم القيامة، فيهدي ويقود الذين تمسّكوا به إلى الجنّة، ويسوق الذين أعرضوا عنه وهجروه إلى النار، فمَنْ جعله أمامه في الدنيا قاده إلى الجنّة، ومَنْ جعله وراءه ساقه إلى النار، وهذا الوصف ينفي عن القرآن المجيد القول بأنَّه «**حمّال أوجه**» بأن يدل على الشيء وضدّه أو الشيء ونقيضه، فالفصل في الخصومات يعني إعطاء القول الفاصل فيها، ووصف القرآن بأنّه «**قول فصل**» يعني أنّه قاطع وحاسم.

التاسع عشر: «**النّجوم**»: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ (الواقعة:٧٥)، ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ (النجم:١) لأنّه نزل نجومًا، ولأنّه أُحكمت آياته وكلماته وحروفه إحكام النجوم في مواقعها. قلت: وفيه إشارة إلى «**الجمع بين القراءتين**»، فالناس يهتدون بنجوم السماء في ظلمات البر والبحر، ويهتدون بنجوم القرآن في سبل الحياة، فنجوم السماء تقدم للناس الهداية الحِسِّيَّة، ونجوم القرآن تقدّم لهم الهداية المعنويَّة. وأصل «النّجم» بمعنى الكوكب الطالع، وجمعه نجوم، وقد جاءت هذه الكلمة في موارد كثيرة في القرآن، أكثرها تنظر إلى مسألة الخلقة والقدرة الإلهيَّة، ولكنَّها في آيتين رجح فيهما بعض المفسرين أنّ المقصود بها القرآن، وهما:

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ (النجم:١)، قال بعضهم: أي: «قسمًا بالقرآن إذا نزل». والآية الأخرى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ (الواقعة:٧٥)، و«المواقع» هي مواضع الوقوع، ويكون المراد بمقتضى هذا التفسير موارد نـــزول القرآن، وهذا المعنى متّحد مع الآية السابقة.

العشرون: «**المثاني**»: ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ (الزمر:٢٣)، قيل: لأنّه ثُنِّي فيه القصص والأخبار، أو الحلال والحرام، أو الأوامر والنواهي، أو الغيب والشهادة وموضوعاته مثنى مثنى، وقد جاءت هذه الكلمة بمعنيين -حسب الأصل- أحدهما «العدد (٢)» والثاني «الثناء والحمد»، وفي القرآن وردت في آيتين؛ إحداهما:

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾ (الزمر:٢٣)، والأخرى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنْ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (الحجر:٨٧). أمّا بمعنى العدد فالمقصود أنَّ القرآن يتكرر ولا يندرس ولا يؤثّر فيه مرور الأزمنة والعصور. وإن كان بمعنى الثناء والمدح فإنَّ المقصود سيكون أنّ القرآن دائمًا مورد لثناء أهل التحقيق وحمدهم، باعتبار أنّهم يشهدون كل حين آثاره الرائعة، وفي المورد الثاني جاءت عبارة «**سبعًا من المثاني**»، وبموجب بعض الروايات أنَّ المقصود منه هو «فاتحة الكتاب» لاشتمالها على سبع آيات، وأنّها تُقرأ في كل صلاة مرتين، قلت: واللغة أوسع من ذلك بكثير، فهناك «الثنيّ» من ذوات الظلف والحافر، وهو ما دخل السنة الثلاثة، وفي الإبل ذوات الحافر ما دخل السنة السادسة، وذلك يعني البلوغ ووصول الغاية، وفيه -أيضًا- «ثنيت الثوب أو الشيء أثنيته» إذا عطفته، وفي التنـــزيل «ثاني عطفه»، فكأنه عندما تنكّر لخالقه -جلّ شأنه- ونأى بجانبه عنه تحوّل إلى ما يشبه المادة القابلة للثني والإمالة والطيّ، فكأنّه لم يعد إنسانًا ذا عقل وإرادة. والثناء: الفناء وزنًا ومعنى، فإذا لاحظنا معاني هذه المادة في اللّغة وفي التنـــزيل كذلك نجد أنَّ هناك أمورًا كثيرة يمكن أن تُستفاد من هذه التسمية، فسور القرآن مثانٍ بالغات أعلى مستويات البلاغة والفصاحة، فمهما قرئت فإنّها تبقى جديدة لا تنقضي عجائبها، وتتجدد حالًا بعد حال، وتُعطي من العظات والعبر والدروس ما لا ينقضي، بل يثنّى ويتكرّر ويتجدّد على مر الزمان. ولسور القرآن وآياته ثناء منفتح على الحاضر والمستقبل لا ينغلق على عصر أو مكان أو إنسان، فهي مثل الكريم والمجيد والمكنون وصف دال على سعة ما يشتمل القرآن عليه من حكم وعظات مؤثّرة وفاعلة في العقول والقلوب، والله أعلم[٢٠]، كما أنّ ذكر المتقابلات من عادات القرآن المعروفة.

الحادي والعشرون: «**النعمة**»: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى:١١)، قال ابن عباس: يعني به القرآن. يذكرهم رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- به ويجدد عقولهم وقلوبهم بحديثه، فتزوله نعمة كبرى أسداها الله -تعالى- إلى خلقه.

الثاني والعشرون: «**البرهان**»: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (النساء:١٧٤)، وكيف لا يكون برهانًا وقد عجز الفصحاء عن أن يأتوا بمثله، وما جاء بشيء

[٢٠] وراجع للاطلاع على مزيد مما أوردناه في المراد بـ"مثاني" كتابنا: "إشكالية المحكم والمتشابه" من سلسلة "دراسات قرآنيَّة".

إلا ومعه برهانه ودليله بشكل يُقيم الدليل ويقطع الحجّة؟ فهو بذاته برهان على صدق رسول الله -صلّى الله عليه وآله وسلّم- في كل ما جاء به، وهو مشتمل على البرهان في كل ما دلّ عليه ودعا له، وهو برهان على وجوده سبحانه وعلى وحدانيّته في ألوهيَّته وربوبيَّته وصفاته.

الثالث والعشرون: «البشير والنذير»: وبهذا الاسم وقعت المشاركة بينه وبين الأنبياء في أهم صفاتهم النبويّة؛ لأنّ به خُتِم الوحي وتوقّف، فيقف القرآن فيمن يأتي بعد ختم النبوّة من البشر موقف النبيّين والمرسلين، قال تعالى في صفة الرسل: ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ (النساء:١٦٥)، وقال في صفة محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (الأحزاب:٤٥)، وقال في صفة القرآن: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (فصّلت:٤)؛ يعني مبشّرًا بالجنّة لـمَنْ أطاع، وبالنار منذرًا لـمَنْ عصى. وجدير بـمَنْ يتعرّض لأسماء القرآن أن يذكر الأسماء المشتركة بين الله -تعالى- وبين القرآن؛ لانتقال الحاكميّة له، والمرجعيّة إليه، فالحاكميّة في هذه الأمَّة «حاكميّة كتاب» يقرؤه الناس ويحتكمون إليه، وفي ذلك تخفيف من الله ورحمة شملت العالمين كافة، وسيأتي مزيد بيان لذلك في مبحث «حاكميّة الكتاب» في المحدّدات المنهاجيَّة للكتاب الكريم.

و«**نذير**» من نذر ينذر نذرًا ونذورًا، من باب علم يعلم، بمعنى الإدراك لعواقب الشيء، والاستعداد له، ولإنذار متعدّيه، بمعنى التوعية بالعواقب الوخيمة للشيء، وقد جاءت هذه الصفة لأنبياء وصفوا بها وللقرآن؛ لأنّ القرآن يخبر عمّا سيواجهه الإنسان من عواقب وخيمة ويحذّره منها، والآيات التي تُعطي هذه الصفة هي:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان:١).

بمعنى أنّه لو لم يكن القرآن -وهو الحكمة البالغة- نذيرًا لهم، فما هو الشيء الذي يمكنه أن ينذرهم به القرآن؟

﴿وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ﴾ (فاطر:٣٧).

﴿هَذَا نَذِيرٌ مِنْ النُّذُرِ الْأُولَى﴾ (النجم:٥٦).

وهناك عدد من الآيات التي جعلت هدف القرآن الإنذار، مثل:

﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ (الأحقاف:١٢).

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (الكهف:٢).

الرابع والعشرون: «**القيّم**»: والدين أيضًا قيّم: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (التوبة:٣٦)، ويُطلق على الله سبحانه القيُّوم: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ (البقرة:٢٥٥)، سُمّي القرآن قيّمًا -أيضًا- لأنّه قائم بذاته في البيان والإفادة، يُبيّن للناس الدين -كله- بما اشتمل عليه من العقيدة والشريعة وقواعد السلوك، يفتقر إليه غيره ولا يتوقف على ما عداه. و«القيّم» يعني المستقيم والثابت، وما يقوم بغيره ويقوم عليه، وقد استعملت هذه الصفة في وصف «الدين» أيضًا «دينًا قيّمًا»؛ أي الدين الثابت والمقوّم لأمور المعاش والمعاد: ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (التوبة:٣٦)، وقد اتصف به القرآن في موقعين، هما:

﴿قَيِّمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ﴾ (الكهف: ٢).

﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ (البينة:٣).

الخامس والعشرون: «**المهيمن**»: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة:٤٨)، وهو مأخوذ من الأمين على ما نزل قبله من ميراث الأنبياء، فهو المرجع فيه، وله القول الفصل في بيان الحق منه، وإنّما وصف به لأنَّه مَنْ تمسَّك بالقرآن أمن الضرر في الدنيا والآخرة، والرب المهيمن أنزل الكتاب المهيمن على النبيّ الأمين لإيجاد قوم يكونون أمناء الله -تعالى- على خلقه، وشهداء على عباده، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة:١٤٣). و«المهيمن» إحدى الصفات التي استعملت في القرآن الكريم في أحد المواقع، وهي الآية الشريفة: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة:٤٨).

ويقول بعض المفسّرين في تفسير هذه الكلمة: "هيمنة الشيء على الشيء -على ما يتحصّل من معناها- كون الشيء ذا سلطة على الشيء في حفظه ومراقبته وأنواع التصرّف فيه، وهذا حال القرآن الذي وصفه الله -تعالى- بأنّه تبيان لكل شيء بالنسبة إلى ما بين يديه من الكتب السماوية"، فالقرآن مهيمن على كل ما سبقه من كتب وصحف، حيث قام بنقدها ومراجعتها، وبيان الصحيح الصادق منها، وما كان من إضافات وتحريفات ألصقت بها، أو أضيفت اليها[٢١]، نبّه إليها وإلى ضرورة استبعادها.

السادس والعشرون: «الهادي»: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء:٩)، وقال تعالى: ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ (الجن:٢)، والله -تعالى- هو الهادي، ورسول -صلّى الله عليه وآله وسلّم – هادٍ كذلك: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ*يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة:١٥-١٦).

السابع والعشرون: «النور»: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (النور:٣٥)، وفي القرآن: ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ (الأعراف:١٥٧)، يعني القرآن، وسُمّي الرسولُ نورًا: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (المائدة:١٥) يعني محمدًا، وسُمّي الدينُ نورًا: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ (الصف:٨)، وسُمّي بيانُه نورًا: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ (الزمر:٢٢)، وسُمّيت بعض التوراة نورًا: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ (المائدة:٤٤)، وسمي بعض الإنجيل نورًا: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة:٤٦)، وسُمّي الإيمانُ نورًا: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ (الحديد:١٢). و«النور» بمعنى الضياء، ولأنّ القرآن في هدايته بمثابة الضياء لهداية البشر فقد أُطلقت عليه هذه الصفة، والآيات المتضمّنة ذلك المعنى هي:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ (النساء:١٧٤).

---

[٢١] راجع: الطباطبائي، الميزان (بيروت: ب.د، ١٩٨٣) ٣٤٨/٦.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ (المائدة:١٥).

﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ (الأعراف:١٥٧).

﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ (الشورى:٥٢).

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ (التغابن:٨).

الثامن والعشرون: «**الحق**»: ورد في الأسماء الإلهيّة «الباعث الشهيد الحق»، والقرآن كلُّه حق: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ (الحاقة:٥١)، فسمّاه الله حقًّا؛ لأنَّه ضد الباطل، فيزيل الباطل كما قال: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ (الأنبياء:١٨)؛ أي ذاهب زائل لئلا يُخالط الحق، ويؤدي إلى الشبهات. وقال تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ (الإسراء:١٠٥).

وأصل «الحق»: المطابقة والموافقة، وقد استعمل في القرآن الكريم في أربعة معانٍ كما يقول الراغب:

أ- في الموجد للشيء بمقتضى الحكمة، فالله من هذه الجهة حق، كما في آية: ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ﴾ (يونس:٣٢).

ب- في الاعتقاد بشيء يطابق الواقع، وذلك في آية: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ (البقرة:٢١٣).

ج- الشيء الذي وجد بمقتضى الحكمة، مثل قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (يونس:٥).

د- في الفعل والقول الذي يتحقق بالمقدار اللّازم، وفي الوقت اللّازم، وبمقتضى الضرورة واللُّزوم، وذلك في آية: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (يونس:٣٣).

والقرآن -بكل هذه المعاني- يتَّصف بأنَّه الحق المطلق، فكل كلمة فيه نزلت بمقتضى الحكمة، وكل ما ورد فيه مطابق للواقع كما ورد فيه، اكتشفنا ذلك واطلعنا عليه أو لم نكتشفه و لم نطلع عليه ، وتوضح ذلك الآيات التي ورد هذا المفهوم فيها:

﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ (البقرة:٩١).

﴿نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ (البقرة:١٧٦).

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ (البقرة:٢٥٢) .

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ (آل عمران:٣).

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ (النساء:١٠٥).

﴿مِمَّا عَرَفُوا مِنْ الْحَقِّ﴾ (المائدة:٨٣).

﴿وَمَا جَاءَنَا مِنْ الْحَقِّ﴾ (المائدة:٨٤).

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ (الأنعام:١١٤).

﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ (يونس:٩٤).

﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (يونس:١٠٨).

﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ (هود:١٧).

﴿وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ (الرعد:١).

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ (الرعد:١٩).

﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ (الإسراء:١٠٥).

﴿وَقُلْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (الكهف:٢٩).

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ (الحج:٥٤).

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ (القصص:٤٨).

﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ (العنكبوت:٦٨).

﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ (السجدة:٣).

﴿الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (سبأ:٦).

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ﴾ (فاطر:٣١).

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ (الزمر:٢).

﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ (الشورى:١٧).

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ الْحَقُّ﴾ (الزخرف: ٣٠).

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ (الجاثية:٦).

﴿وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ (محمد:٢).

﴿وَمَا نَزَلَ مِنْ الْحَقِّ﴾ (الحديد:١٦).

﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ الْحَقِّ﴾ (الممتحنة:١).

﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ (الحاقة:٥١).

والعجب كل العجب من أولئك الذين يقرؤون هذه الآيات، ويؤمنون بها، ويوقنون بأنّ كل ما بين دفتي هذا الكتاب حق مطلق، يدركه مَنْ يدركه، ويغفل عنه من يغفل، ثم ينصرفون عنه إلى مصادر للمعرفة هي دونه في كل شيء، لم تكتسب من الله شهادة ولا

برهانًا، ولم يُنزّل الله -جلّ شأنه- بها من سلطان، لكنّه التيه والغرور الإنسانيّ والشيطان والرغبة بالانحراف، وصعوبة الثبات على الحق.

التاسع والعشرون: «**العزيز**»: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (الروم:٥)، وفي صفة القرآن: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ (فصلت:٤١)، والنّبي عزيز: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة:١٢٨)، قلت: هناك تسامح بالاستدلال بهذه الآية على هذه الصفة، وآية سورة «المنافقون» تكفي دليلًا على ذلك، والأمّة عزيزة: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (المنافقون:٨)، فربٌّ عزيزٌ أنزل كتابًا عزيزًا على نبيّ عزيز لأمّة عزيزة، وللعزيز معنيان؛ **أولهما**: القاهر، والقرآن كذلك؛ لأنّه هو الذي قهر الأعداء، وامتنع على مَنْ أراد معارضته. **والثاني**: أن لا يوجد مثله وهو متفرد: ﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء:٨٨). و«عزيز» لها معانٍ مختلفة؛ منها: القوي، والشريف الكريم، والنادر، وهي في إطلاقها على الله -تعالى- بمعنى القويّ، الذي لا يقبل الغلبة عليه، أو الندّيّة، والذي لا يعجز عن أيّ شيء، وتُطلق على القرآن بمعنى الشريف والكريم الذي لا يقبل الندّيَّة؛ لتحدّيه وإعجازه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ (فصلت:٤١).

وفي خمس مواقع نُسب نزول القرآن إلى الله العزيز، وهي الآيات:

﴿تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (يس:٥).

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ (الجاثية:١).

﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (غافر:٢).

﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الشورى:٣).

الثلاثون: «**الكريم**»: الكريم في عطائه كثرةً وتجدّدًا: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ*فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ (الواقعة:٧٧-٧٨)، واعلم أنَّه -تعالى- سَمّى سبعة أشياء بالكريم، سمّى نفسه بالكريم: ﴿يَاأَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (الانفطار:٦)، إذ لا جواد أجود منه، وسمّى القرآن بالكريم؛ لأنَّه لا يُستفاد من كتاب من الحكم والعلوم ما يُستفاد منه كثرة وتجدّدًا على مرّ العصور، وسمّى موسى كريمًا: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ (الدخان:١٧)، وسمّى ثواب الأعمال كريمًا: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ (يس:١١)، وسمّى عرشه كريمًا: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ (المؤمنون:١١٦)؛ لأنَّه منـــزل الرحمة، وسمّي جبريل كريمًا: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (التكوير:١٩) ومعناه أنَّه عزيز، وسمّى كتاب سليمان كريمًا: ﴿قَالَتْ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ (النمل:٢٩)، فالقرآن كتاب كريم من رب كريم نزل به ملك كريم على نبيّ كريم؛ لإيجاد أمة كريمة معطاء للهداية، حاملة للنور إلى البشريّة كلها، فإذا تمسّكوا به نالوا ثوابًا كريمًا.

و«كريم» جمعه كرام وكرماء، وهو من الأسماء الحسنى لله تعالى، وهو بمعنى الجواد السخيّ لدى الإنسان، وفي مجال الأشياء كل بحسب ما له من أفضل الحالات التي تُوجب الإعجاب، فمثلًا «رزق كريم»: بمعنى الرزق الكثير الحسن، و«قول كريم»: بمعنى الكلام الذي يفيد من حيث اللفظ والمعنى، و«وجه كريم»: بمعنى الوجه الحسن الصبوح.

وهذه الصفة جاءت في القرآن لأسماء وعناوين مختلفة -كما تقدّم - مثل: الله، الرسول، نعيم الجنّة، الأجر، القول، الرزق، القرآن، وفي وصف القرآن جاءت في موقع واحد، وهو:

﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ (الواقعة:٧٧).

وجاء في موقع آخر بصيغة مكرَّمة وصفاً لصحف القرآن:

﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ﴾ (عبس:١٣).

وفي موقعين نسب إلى الرسول الكريم:

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (الحاقة:٤٠)، ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (التكوير:١٩) باعتباره قولًا كريمًا لا يصل إلى المخاطبين والمكلّفين مباشرةً، بل الطريق الوحيد لوصوله إلينا هو طريق الرسول الكريم -صلّى الله عليه وآله وسلّم- فساغ أن يُنسب إليه بهذا الاعتبار.

الحادي والثلاثون: «**العظيم**»: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنْ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (الحجر:٨٧)، واعلم أنَّه -تعالى- سمّى نفسه عظيمًا، فقال: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (البقرة:٢٥٥)، ووصف عرشه بكونه عظيمًا: ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (التوبة:١٢٩)، وكتابه عظيم: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنْ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (الحجر:٨٧)، وسمّى يوم القيامة عظيمًا: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (المطففين:٦)، والزلزلة عظيمة: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (الحج:١)، ووصف خلق الرسول بكونه عظيمًا: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤)، والعلم الذي أعطاه وفَضْلُه عليه به كان عظيمًا: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (النساء:١١٣)، وسمى نفس الثواب الذي وعد المؤمنين به عظيمًا: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح:٢٩)، وسمّى عقاب المنافقين عظيمًا: ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة:٤١).

الثاني والثلاثون: «**المبارك**»: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ (الأنبياء:٥٠)، وسمّى الله -تعالى- به أشياء، فسمّى الموضع الذي كلّم فيه موسى -عليه السلام- مباركًا: ﴿الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنْ الشَّجَرَةِ أَنْ يَامُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (القصص:٣٠)، وسمّى شجرة الزيتون مباركة: ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ﴾ (النور:٣٥) لكثرة منافعها، وسمّى عيسى مباركًا: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ (مريم:٣١)، وسمّى المطرَ مباركًا: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾ (ق:٩) لما فيه من المنافع، وسُمّيت ليلة القدر مباركة: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ (الدخان:٣). و«المبارك» من البركة؛ بمعنى وجود الخير الإلهيّ في شيء مّا، و«المبارك» هو الشيء الذي يوجد فيه ذلك. وحول القرآن توجد هذه الصفة في بعض المواقع؛ فهو مبارك تتزايد منافع البشر فيه، وقد بارك الله لهم فيه فلا يتوقف عطاؤه ولا ينقطع خيره وبركته:

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (الأنعام:٩٢).

﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ (الأنبياء:٥٠).

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ (ص:٢٩).

وفي مورد واحد إشارة لنزوله في زمانٍ مبارك:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ (الدخان:٣).

وفي مورد آخر إشارة إلى التقديس والعظمة الإلهيّة والكرامة الرحمانيّة التي أُنعمت بنـــزول القرآن على عبد الله ورسوله محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان:١).

الثالث والثلاثون: «**المصدق**»: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة:٤٨)، فكل ما أنزل قبله من كتب وصحف يعتمد في إثبات صدقه عليه، ولا يتوقف صدقه هو على شيء منها، وقد صدَّق القرآن على ما سبقه، فكأنَّه راجع تراث النبوّات -كلها- ونقده، وميّز الصادق منه من غيره، وأعاد عرضه كما أنزل دون تغيير أو تبديل أو تحريف، وهو المصدّق على السنّة النبويَّة والتراث الإسلاميّ كله، و«الصدق» أحد الصفات التي أُطلقت على القرآن، ومناسبته في القرآن واضحة، فهو صدق كلّه؛ لأنّه كلام الله -تعالى- الصادق الذي يستحيل أن يصدر عنه أو في كلامه غير الصدق، والآيات التي جاء فيها هذا اللقب كثيرة، وهي:

﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ (الزمر:٣٢).

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ (الزمر:٣٣).

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ (الأنعام:١١٥).

وفي موقعين آخرين ذكر قول الله -وهو القرآن- على أنّه «أصدق الحديث» و«أصدق القول»، وهما:

﴿ومن أَصْدَقُ مِنْ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (النساء:٨٧).

﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللَّهِ قِيلًا﴾ (النساء:١٢٢).

وفي ذكر القرآن باعتباره مصدّقًا للكتب السماويّة التي سبقته يُقصد أنّه قد راجع الكتب السابقة له، وقام بنقدها، وإزالة شوائب الكذب والباطل والتحريف عنها، وأعاد ذكر الصدق والصادق منها، وليس المراد أنّه اعترف بها وصادق عليها كما هي، حيث إنّ التحريف فيها أو في بعض ما ورد فيها أمر لا جدال فيه، ولكنّه راجعها وأعادها إلى حالة الصدق.

﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ (البقرة:٤١).

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ (البقرة:٨٩).

﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ (البقرة:٩١).

﴿نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة:٩٧).

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (الأنعام:٩٢).

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (آل عمران:٣).

﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة:٤٦).

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ (المائدة:٤٨).

﴿هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (فاطر:٣١).

﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ (الأحقاف:١٢).

﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الأحقاف:٣٠).

والحق أنّ أسماء القرآن وألقابه وما وصف به أكبر بكثير من هذا العدد الذي ذكره الفخر الرازي وغيره، إذ أنّ الله –تعالى– وصفه بأوصاف أخرى كثيرة يمكن أن نشتق منها أسماء كثيرة أخرى غير ما ذكروه منها، على سبيل المثال لا الحصر: المخرج من الظلمات، والمفصّل، والموصّل، والمحكم، والمتشابه، والمتحدي، والمعجز، والوحي، والعربيّ، والآيات، والمجيد، والمكنون، وتذكرة للمتقين، وحسرة على الكافرين، وحق اليقين، والنبأ العظيم... وغير ذلك كثير.

ولكي نستكمل بحث هذا الموضوع ونوليه ما هو جدير به من العناية نُضيف إلى ما أوردناه ما يساعد على معرفة أسماء وصفات القرآن المجيد على وجه أشمل وبشكل مستقرئ بقدر الإمكان، ويمهد في الوقت نفسه لبحوث أخرى ذات صلة مباشرة بموضوعنا، وهو القرآن وعلومه، ونود أن نضيف إلى ما تقدم **ما أمكن الوصول إليه من أسماء القرآن وصفاته التي ذكرت في آيات الكتاب الكريم، مما عدّه القرآن المجيد جزءًا من خصائص القرآن، أو بيانًا لأهدافه أو كيفيَّة نـــزوله، أو كونه كله حقًّا ثابتًا لا مراء في أي حرف منه، وكذلك عالميّته ووحدته البنائيّة وعربيّته ونحو ذلك من صفاته وخصائصه ومحدّداته المنهجيّة مما يقتضي استقراء تامًّا لآيات الكتاب الكريم.**

لقد أطلق القرآن المجيد على نفسه أوصافًا وأسماء يصعب تجاهل أو إهمال أيٍّ منها؛ لأنَّ كلًّا منها يمثّل شيئًا من حقيقته المحرّمة، وبعض ما ورد لا يصعب على الباحث تحديد كونه اسمًا، وبعضها هو إلى الصفة أقرب منه إلى الاسم، وبعضها يمكن أن يُنسب إلى الأسماء، كما يمكن أن يُعدّ في الصفات، وقد آثرنا وضعها وفقًا للتسلسل الأبجدي، فذلك أعون للقارئ –إن شاء الله– على تتبُّعها معنا، والرجوع إلى الآيات التي وردت فيها لمعرفة السياق الذي وردت

فيه، والإلمام بمعناها وفقًا له، ولا نرى ضيرًا في تكرار بعضها؛ لأنّنا أوردناها في سياق آخر، ولتحقيق فائدة إضافية[٢٢].

١-أحسن ما أنــزل:

وقد جاء هذا التعبير في مورد واحد من القرآن الكريم وهو آية: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (الزمر:٥٥)، وفي مقام مقارنته بسائر الكتب السماويّة الأخرى، وأنه أكمل الكتب السماويّة وأتقنها، حيث أُوحي به إلى آخر نبي، أمّا ما كان به أحسن فهو كثير؛ منه كونه معجزًا وميسّرًا للذّكر، ومنجّمًا ومرتلًا وكافيًا وشاملًا لأركان الإيمان والإسلام والإحسان؛ أي للعقيدة والشريعة والقيم، ومحفوظًا بحفظ الله من داخله بالنّظم والأسلوب والفصاحة والبلاغة والإعجاز، وتكفّل الله بحفظه بنفسه، في حين أنّه أوكل حفظ الكتب السابقة إلى الأحبار والربّانيّين؛ ففرّطوا ونسوا وغيّروا وبدّلوا فيها ما شاؤوا، واشتماله على الخطاب العالميّ لا الاصطفائيّ الحصريّ، واشتماله على المقاصد والقيم العليا الحاكمة وشريعة التخفيف والرحمة، والكليّات والسنن والقوانين التي تساعد البشريّة على القيام بمهامها في حمل الأمانة الإلهيّة وتأسيس العمران وتحقيق غاية الحق من الخلق وغير ذلك من مزايا لا تُحصى.

٢- بشرى:

وهو أحد الأوصاف والأسماء التي أُطلقت عليه، والقرآن بشرى لأنّه يُبشّر المؤمنين بالجنّة والنّعم الأخرويّة، وكذلك لأنّه يوجد سعادة الإنسان في الدنيا أيضًا، والآيات التي ورد فيها هذا الوصف منها:

﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة:٩٧).

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل:٨٩).

---

[٢٢] استفدنا من بحوث عديدة في هذا المجال ومنها بحث الشيخ محمد باقر الأنصاري الذي قدمه إلى "المؤتمر الثاني للفكر الإسلامي" بعنوان "أسماء وأوصاف القرآن في القرآن" الذي نشرته منظمة الإعلام الإسلامي عام(١٤٠٦ هــ)، ١٩٨٦، وأدخلنا عليها ما رأيناه ضروريّاً من تعديلات وإضافات.

﴿وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل:١٠٢).

﴿وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾ (الأحقاف:١٢).

ولقد وجدت -كما وجد الملايين- أنّ أهم علاج للكروب وإزالة الهموم وانشراح القلوب والصدور هو القرآن، فهو العلاج الشافي للهموم والأحزان مهما عظمت.

٣- بلاغ:

جاء إطلاق البلاغ في آية واحدة ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ (إبراهيم:٥٢)، والبلاغ بمعنى البلوغ والوصول إلى المقصد، ومع كثرة ورود لفظ «بلاغ» غير أنّ الآية الوحيدة التي أطلقت فيها باعتبارها اسمًا يطلق على القرآن ويوصف القرآن به هي هذه الآية، فهو بلاغ يَبلغ بقارئيه المتدبرين الحقائق، ويخرجهم من ظلمات الشكوك والقلق والريب.

٤- تفصيل

وهي إحدى الكلمات التي استعملت في وصف القرآن، والفصل بمعنى التفريق، والمزيد منه من باب التفضيل جاء بمعان؛ منها: التبيين والتوضيح، والإتيان بالتفصيل والتطويل هو جَعْل الكتاب فصلًا فصلًا وكذلك فعل تقطيعه، أمّا في القرآن فقد جاء بمعنى التبيين الذي يرادف التبيان، والآيات المتعلقة بهذا هي:

﴿وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (يونس:٣٧).

﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (يوسف:١١١).

وجاء في آية واحدة بشكل اسم مفعول، وهي:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ (الأنعام:١١٤)، فهو الذي فصّله الله على عمله، ورتّبه بحكمته جلّ شأنه.

وفي آيات أخرى بشكل فعل، وهي:

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ (الأعراف:٥٢).

﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود:١).

﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (فصلت:٣).

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ (فصلت:٤٤).

ومعنى الأعجميّ في الآية الأخيرة: هو المبهم وغير الواضح وغير البليغ، وعليه فإنّ كلمة «فصِّلت» ستكون بالمعنى المذكور؛ أي أنَّه لو لم يكن القرآن مبيّنًا وواضحًا لقال الكفار: لماذا لم يوضح القرآن؟

وفي آية أخرى استعملت كلمة «فصل» في القرآن، وهي: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ (الطارق:١٣)، واستعمال المصدر هنا هو بمعنى الفاعل وللمبالغة، كما يُقال: "زيد عدل"، فالقرآن حقًّا فاصل بين الحق والباطل، وعليه فهذا التعبير من نوع التعبير بـــ«الفرقان».

٥- صحف:

جمع «صحيفة»، بمعنى الشريط المنبسط، أو بمعنى الصفحة التي كُتب عليها شيء، والجمع هو «صحائف»، وقد استعمل هذا الاسم في القرآن والكتب السماويَّة الأخرى، أمّا في القرآن:

﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ*فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ﴾ (عبس:١٢-١٣).

﴿رَسُولٌ مِنْ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ (البينة:٢).

وفي سورة الأعلى جاءت:

﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ (الأعلى:١٩).

وأحيانًا بعنوان الصحف الأولى:

﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (طه:١٣٣).

أمّا استعمال كلمة «مصحف» في القرآن، فهو استعمال متأخر، ولم تذكر هذه الكلمة في القرآن، وهذه الكلمة -كما ورد في كتب اللغة- هي بمعنى الصفحات التي صارت بشكل كتاب ونُظمت بين جلدين، ولم يكن القرآن بشكله المجلّد المعروف اليوم عند نـــزوله، بل كان صحائف يكتبها كُتّاب الوحي على ورق الشجر والعظام و الأحجار والجلود أو الورق إن وجد، جُمعت في حياته -عليه الصلاة والسلام- في بيت حفصة أم المؤمنين، وكان الجمع الثاني للمكتوب في عهد أبي بكر الصديق، ثم اتَّخَذَت شكل المصحف عند كتابة «المصحف الإمام» من عدة نسخ في عهد عثمان -رضي الله عنه- وتوزيعها على الحواضر الإسلاميَّة الهامّة.

٦- عدل-العدل:

وقد أطلق على القرآن في موقع واحد اسم «العدل»، وهو الآية:

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ (الأنعام:١١٥).

والمقصود منه أنّ القرآن من حين نزل باقٍ على صفته الأولى دون تحريف أو تبديل، و«لا مبدّل لكلماته» تعليل لكونه «صادقًا وعدلًا»، بمعنى أنَّ الصدق وعدم الانحراف فيه ثابتان؛ لأنّه يستحيل أن يحصل تبديل في كلماته، وهو عدل -كلّه- في سائر أحكامه وأخباره وأمثاله وعظاته، ولا يمكن أن يخرج عن العدل إلى سواه.

٧- القول:

وهو الاسم الآخر من أسماء القرآن، وجاء في الآيات التالية:

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ (المؤمنون:٦٨).

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمْ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (القصص:٥١).

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (الحاقة:٤٠) (التكوير:١٩).

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (المزمل:٥).

﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ (الطارق:١٣).

هذه الآيات تؤكد أنّ القرآن قول الله الذي نزل على رسوله بوساطة الوحي، ولا يمكن أن يكون قولًا يُنسب إليه شخصيًّا، بل نسبته إلى الله -تعالى- فهو قوله وكلامه، وهو ما نرى آية أخرى تؤكده، فتقول:

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ*لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ (الحاقة:٤٤-٤٥).

وقد استعملت كلمة «قول» منسوبة إلى الله في مثل:

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنْ اللَّهِ قِيلًا﴾ (النساء:١٢٢).

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (المزمل:٥).

وصفة «الثقيل» في الآية المذكورة أتت باعتبار أنَّ القرآن لا يستطيع أن يتحمله أيّ أحد، ولكن يتحمله المطهّرون؛ وهم الذين مَنّ الله عليهم بالقلوب الطاهرة الصافية، كما جاء في الآية الأخرى:

﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (الحشر:٢١).

٨- كلام الله:

وهذا التعبير جاء في القرآن في ثلاثة مواقع، أحدها يتعلّق بالقرآن، وهي الآية:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنْ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ (التوبة:٦).

والمقصود بكلام الله هو القرآن، إذ أنَّ كل القرآن كلام الله، حتى ما أورده -سبحانه- حكاية لأقوال الآخرين، فإنَّه قد صار -بحكايته له- كلامه، وقد جاء في آية أخرى: ﴿وَتَمَّتْ

كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ (الأنعام:١١٥)، والمقصود هو القرآن بكل ما جاء؛ ابتداءً أو حكايةً عن الغير، ووصفه بـــ«كلمة» كأنّه كلمة واحدة، وفيه إشارة إلى وحدته البنائيَّة.

٩- نبأ عظيم-النبأ العظيم:

وقد أُطلق في موقع واحد -طبق أحد الأقوال- على القرآن، وهي الآية:

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ (ص:٦٧) و«النبأ» بمعنى الخبر؛ ولأنَّ القرآن كتاب يُخبر عن الأمم السابقة وأنبيائها، وعن التوحيد والمعاد، وما يجوز وما لا يجوز، والقصص والأمثال، فقد سُمّي بهذا الاسم. ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ*عَنْ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ (النبأ:١-٢)، لقد كان نبأً عظيمًا نزول القرآن على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، فنـــزوله -وإن بَشّر به الأنبياء السابقون، وتهّيأ الناس لاستقباله- في مكة وعلى محمد -صلّى الله عليه وآله وسلّم- يُعدّ مفاجأة ونبأ عظيمًا، جعلهم يتساءلون في دهشة وحيرة -وهم الأميّون أبناء الأميّين الذين لم يأتهم قبل رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم نبيّ ولا رسول- عن ذلك النبأ العظيم.

١٠- الوحي:

وهو في اللّغة كل شيء يعلّمه الإنسان للآخرين إلقاءً، ولكنّه بالتدريج شاع فيما أنزله الله على أنبيائه. وللوحي أقسام وأنواع متعدّدة: فهو في هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ (النحل:٦٨) جاء بمعنى الإلهام الغريزيّ؛ وهو نوع من الوحي، والوحي قد يكون من وراء حجاب كالشجرة وأمثال ذلك، وقد يُرسل الله رسولًا فيوحي بإذنه ما يشاء، وهو الأغلب في الأنبياء والمرسلين، وهناك أنواع أخرى من الوحي، وقد أُطلقت هذه الكلمة على القرآن في بعض الآيات، وهي:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم:٤).

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ (الأنبياء:٤٥).

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه:١١٤).

وفي آيات أخرى ذُكرت كلمة «الوحي» بشكل فعل، وهي تدل على أنَّ القرآن أُوحي إلى الرسول -صلّى الله عليه وآله وسلّم- من الله، وهذه الآيات هي:

﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ﴾ (الأنعام:١٩).

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ (يوسف:٣).

﴿لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ (الرعد:٣٠).

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ (الإسراء:٧٣).

﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ (الإسراء:٨٦).

﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ (الكهف:٢٧).

﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ وَأَقِمْ الصَّلَاةَ﴾ (العنكبوت:٤٥).

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (فاطر:٣١).

﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الشورى:٣).

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ (الشورى:٥٢).

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ (الزخرف:٤٣).

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنْ الْجِنِّ﴾ (الجن:١).

أمّا عمّا يقترب من كونه وصفًا للقرآن:

رغم أنَّ بعض العناوين التي ذكرناها قد تكون صفات للقرآن علاوةً على كونها أسماء له، إلا أنَّ ما نذكره فيما يلي لا يعدو أن يكون صفة له لوحظ -في وصفه بها- جانب معيّن مما يتّصف القرآن به، منها:

١١- عجب:

وهذه الكلمة جاءت في موقع واحد من القرآن، وهو:

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنْ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ (الجن:١)؛ أي: القرآن الذي لم نعرفه من قبل، ولم يسمع أحد به، أو يره من قبل، فهو يستدعي العجب ويُثيره! وهذا التعبير جاء بشكل فعل على نحو الاستفهام الإنكاريّ، مثل:

﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ (النجم:٥٩).

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (الأعراف:٦٣).

حيث إنَّ التعجب في هذه الآيات حالة لمنكري القرآن، وفي آية سورة الجن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنْ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ (الجن:١) هي صفة للقرآن تدل على أنَّه نال إعجابهم وأثار عجبهم بما اشتمل عليه أو بنظمه وأسلوبه؛ مما جعلهم يعبّرون عن ذلك بهذا الوصف، فليس كل العجب مذمومًا، بل هناك عجب ممدوح؛ لأنَّ المراد به الإشارة إلى التفرّد والتميّز، بحيث يصبح وكأنّه عجيب فيما يتصف به مستغرب أن يأتي بالطريقة التي نزل بها، ومن النوع الأول آيات:

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ﴾ (يونس:٢).

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ (الكهف:٩).

فحين ترد تلك الصفة وصفًا للقرآن فإنَّ المراد بها أنَّه مثير للعجب مستدع للإعجاب.

١٢- عربيٌّ:

وهو أحد أوصاف القرآن، وهو عربي لأنّ الرسول الخاتم -صلّى الله عليه وآله وسلّم- عربيٌّ؛ ولأنَّ المخاطبين الأولين به عند نزوله في أم القرى وما حولها كانوا عربًا وإن كانت رسالته للعالمين كافة، والقرآن نفسه يؤكد عالميَّته وعالميّة الرسالة في آيات، منها:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان:١).

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (التكوير:٢٧).

وذلك بشكل واضح وصريح، وعربيّ بمعنى اللسان العربيّ، وبمعنى الكلام الفصيح والواضح الذي لفصاحته وبلاغته يكاد يُعرب عن نفسه ومعانيه بحيث يفهمه أو يشعر بأنّه يفهمه مَنْ يعرف لسانه ومَنْ لا يعرف لغته، وقد استعمل بكلا معنييه في القرآن، والآيات التالية يمكن اعتبارها من النوع الأول:

﴿وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (النحل:١٠٣).

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (الشعراء:١٩٥).

﴿وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ (الأحقاف:١٢).

ويمكن اعتبار الآيات التالية من النوع الثاني:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف:٢).

﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ (الرعد:٣٧).

﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ (طه:١١٣).

﴿قُرآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الزمر:٢٨).

﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (فصلت:٣).

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ (الشورى:٧).

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الزخرف:٣).

وهو، وإن نزل بلسان النبي، ويسّره الله -تعالى- بهذا اللسان، غير أنّ خطابه عالميٌّ وجه بتدرّج إلى جميع شعوب الأرض: الأميَّة التي لم يأتها قبل خاتم النبيّين رسول، حتى إذا أخرج الشعوب الأميّة من حالة الأميّة وصاروا أهل كتاب تأهلوا لأن يصحّحوا مسيرة الذين غيَّروا وبدّلوا ليصدّق على رسالات أنبيائهم ويهيمن عليها، وبذلك يظهر الإسلام الذي جاء به إبراهيم والأنبياء كافة على الدين كله، وتتوحد مرجعيَّة البشريّة حصرًا فيه، ويتوحّد الدين في الإسلام الذي بدأ بإبراهيم وتم واكتمل بمحمد صلّى الله عليه وآله وسلّم.

١٣- غير ذي عوج:

«عوج» «يعوج» «عوجًا» من باب علم يعلم، وهي بمعنى الانحناء، وإطلاقها على الإنسان تعبير عن وصفه بسوء الخلق، ويُعدّ هذا التعبير من الصفات المنفيّة عن القرآن، حيث استعملت في موقعين؛ أحدهما:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا﴾ (الكهف:١).

﴿قُرآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الزمر:٢٨).

ويقول الراغب في شرح هذا التعبير: "والعوج يُقال فيما يُدرك بالفكر والبصيرة، كما يكون في أرض بسيط يعرف تفاوته بالبصيرة، وكالدين والمعاش"، وعليه، فلمّا كان القرآن من الأشياء التي تُدرك بالفكر والبصيرة أمكن أن تُستعمل هذه الكلمة وصفًا له، فليس فيه أي اعوجاج وانحناء.

١٤- مجيد:

وهي من الصفات الإلهيّة؛ بمعنى مجري الفيض والبذل والعطاء المخصوص به بجود عظيم وشرف كبير، وفي وصف القرآن استعمل في مكانين:

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ (ق:١).

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ (البروج:٢١).

والمعنى أنَّ القرآن عظيم محمود؛ لأنّه يتضمّن كل المكارم الدنيويّة والأُخرويّة.

١٥- متشابه:

وهذه الصفة جاءت في آية كصفة لجزء من القرآن ويقابله المحكم التي يتصف بها باقي القرآن، وهي الآية:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ (آل عمران:٧)، ولكن في آية أخرى يتصف بها القرآن كله، وهي:

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ (الزمر:٢٣).

فما المقصود إذن؟ طبيعيٌّ أنّ البحث في المحكم والمتشابه يجري في محله، ولكن المقصود من المتشابه هنا هو الشبه؛ أي الكتاب الذي يُشابه بعض آياته البعض الآخر في النّظم والإحكام والحكمة والاستقامة وغير ذلك، وإلا فإن كان المتشابه بالمعنى المقابل للمحكم، فإنّ هذه الآية تتناقض مع آية المحكم والمتشابه، وسنأتي على بحث قضيّة «المحكم والمتشابه» تفصيلًا إن شاء الله[٢٣].

١٦- مرفوعة:

أي رفيعة القدر والمترلة، وهذا التعبير جاء في آية:

﴿مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ﴾ (عبس:١٤).

صفة للصحف، والصحف خبر بعد خبر، وهو -القرآن- في صحف مكرّمة، مرفوعة مطهّرة؛ أي متعددة، وكُتب بواسطة كرام بررة، وكرام كاتبين. وهذه الصحف كريمة، ورفيعة القدر ومطهَّرة، وهذه الأوصاف أوصاف مباشرة لصحف القرآن، فكأنَّه -سبحانه- بعد أن

[٢٣] راجع: كتابنا: "إشكالية المحكم والمتشابه" من سلسلة "دراسات قرآنيَّة".

وصف القرآن بالعزّة والرّفعة والكرم والمجد وغير ذلك، ووصفت صحائف القرآن بذلك، حق القرآن العزة والرفعة جملةً وتفصيلًا، وحقّه على أهله أن يُعزّوه ويُعزّروه ويُوقّروه.

إنّكم إن تدبّرتم وتأمّلتم في هذه الأسماء والصفات فستعرفون أنّ من الممكن أن تستغنوا بي عن سواي، ولكن لا يمكن لعلوم الأولين والآخرين أن تُغنيكم عنّي، فالصّلة بي ينبغي أن تكون مثل صلة المصباح الكهربائيّ بالتيّار، لو انقطعت للحظة أو أقل منها انقطع النور عن المصباح، وهكذا الحال بالنّسبة لي، فأنا الطاقة المنيرة لقلوبكم وعقولكم وبصائركم، لو توقف الاتصال بي -ولو لجزء من الثانية- لما استنار قلب أو عقل أي منكم بالهداية.

ويمكن للتالين المتدبّرين الذين يريدون أن ينشئوا حوارًا مع القرآن المجيد أن يدعوه بأي اسم من هذه الأسماء أو صفة من هذه الصفات. وقد يختار مُحَاور القرآن المجيد أنسب هذه الأسماء أو الصفات للإشكاليّة أو الأزمة التي يريد أن يحاور القرآن فيها، أو يستنطقه لمعرفة وجه الهدى فيها، ولتدريب النّفس على التدبُّر وشحذ الذهن لممارسته قد يكون من المناسب أن يُردّد هذه الأسماء والصفات قبل الشروع في القراءة لمرّات عديدة؛ لترتسم في عقله وقلبه الصورة الملائمة لهذا النبأ العظيم، والله أعلم.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات... هذا ما وفّق الله له من حواري الأول مع القرآن الكريم، والذي يدور في جملته حول الأمَّة، وكيفيَّة إعادة بنائها بعد أن تفكّك هذا البناء، ومنحها الطاقة والقدرة على إعادة الحيويّة والفاعليّة، وتنشئة الأجيال على الإحساس بالانتماء إلى الأمّة وتبنّي مفهومها، وتعزيز ذلك الانتماء بتنشئة الجميع على ذلك، والاستفادة من العقيدة والشريعة والعبادة والمنهج في ذلك كلّه، ورحم الله امرأ عزّز ما تقدم، وأضاف إليه وبنى عليه، واستكمل هذه المحاولات البسيطة، وأقام عليها ما يوفّقه الله إليه، سائلًا العليّ القدير أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، وجلاء همومنا وأحزاننا، ونور أبصارنا وبصائرنا، وأن يُعلّمنا منه ما جهلنا، ويُذكّرنا منه ما نسينا، ويرزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار، وبالشكل الذي يُرضيه -سبحانه وتعالى- عنا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

طه جابر العلواني

من مواليد العراق عام ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥.

- دكتوراه أصول الفقه، كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر ١٣٩٢ هـ - ١٩٧٣.
- ماجستير كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨.
- ليسانس كلية الشريعة والقانون، جامعة الأزهر ١٣٧٨ هـ -١٩٥٩.
- شارك في تأسيس المعهد العالميّ للفكر الإسلاميّ في الولايات المتحدة عام ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ ثم ترأسّه مدة عشر سنوات ١٩٨٦_ ١٩٩٦م.
- رئيس جامعة قرطبة في الولايات المتحدة منذ ١٩٩٦ وحتى الآن.
- عضو مجمع الفقه الإسلاميّ الدوليّ بجدة ورئيس المجلس الفقهي لأمريكا الشمالية.

أحدث المؤلفات:

- المحصول في أصول الفقه للرازي. تحقيق ودراسة. القاهرة: دار السلام، ٢٠١١.
- أفلا يتدبرون القرآن. القاهرة: دار السلام، ٢٠١٠.
- نحو موقف قرآني من إشكالية المحكم والمتشابه. القاهرة: دار السلام، ٢٠١٠.
- معالم في المنهج القرآني. القاهرة: دار السلام، ٢٠١٠ .
- نحو إعادة بناء علوم الأُمّة الاجتماعية والشرعية بالاشتراك مع د. منى أبو الفضل. القاهرة: دار السلام، ٢٠٠٩.
- مفاهيم محوريّة، بالاشتراك مع د. منى أبو الفضل. القاهرة: دار السلام، ٢٠٠٩.
- التعليم الديني بين التجديد والتجميد. القاهرة: دار السلام، ٢٠٠٩.
- نحو التجديد والاجتهاد، جزءان. القاهرة: دار تنوير، ٢٠٠٨.

- الوحدة البنائية للقرآن المجيد. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦.
- لسان القرآن ومستقبل الأمة القطب. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦.
- نحو موقف قرآني من النسخ. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٦.
- أزمة الإنسانية ودور القرآن الكريم في الخلاص منها. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٥.
- الجمع بين القراءتين. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٥.
- مقدمة في إسلاميَّة المعرفة. بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١.
- لا إكراه في الدين. القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٥.
- إصلاح الفكر الإسلامي: مدخل إلى نظام الخطاب في الفكر الإسلامي المعاصر. بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١.
- مقدمة في إسلامية المعرفة. بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١.
- مقاصد الشريعة. بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١.
- الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي. بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١.
- الأزمة الفكرية ومناهج التغيير. بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١.
- نحو منهجية معرفية قرآنية. بيروت: دار الهادي، ٢٠٠١.

فهرس الموضوعات

الإهداء: .....

شكر وثناء: .....

المقدمة: .....

بين يدي الحوار: .....

السؤال الأول: .....

السؤال الثاني: .....

السؤال الثالث: .....

السؤال الرابع: .....

السؤال الخامس:.....

السؤال السادس: .....

أسماء القرآن العظيم: .....

الخاتمة: .....

المؤلف في سطور: .....

فهرس الموضوعات: .....

هذا الكتاب

الحوار سمة هذا العصر، والدعوة إليه أصبحت عامّة شاملة، حتى بدأ البعض يرى أنَّ الحوار بحدّ ذاته لم يعد وسيلة فقط، بل هو حل كذلك، وعلاج لكثير من القضايا، وانطلاقًا من ذلك أبحرت في تجربة الحوار مع القرآن في كثير ممّا يهمني من قضايا أمّتي ومشكلاتها؛ فوجدت متعة لا توصف، بل ينبغي أن تجرَّب تجريبًا من الراغب في تذوقها بمساءلة القرآن ومحاورته وإثارته واستقصاء أجوبته، ووجدته بالفعل يخرج عن أن يكون مجرّد كتاب يُقرأ أو يُكتب، بل هو متحدّث يتحدَّث إلى القلب ويتحاور مع الفطرة الإنسانيَّة.

وهذه المحاولة ليست إلا محاولة شخصيَّة وتجربة ذاتيَّة، قد يوفقكم الله لأحسن منها وأفضل، فمَنْ وجد خيرًا فليحمد الله ولا يحرمني من دعوة صالحة، ومَنْ وجد غير ذلك فليستغفر الله لي، وليحاول، فقد يكون التوفيق حليفه في بلوغ أفضل مما بلغته، والوصول لأحسن مما وصلت إليه، والله -سبحانه- وليّ التوفيق.